ذكر ما أفضت إليه أحوال الخانية بعد معاودة ما وراء النهر

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة بعد انكشاف عسكر الترك عنه يراعي ما يسفر عنه تدبير أيلك الخان، وأخيه الكبير طغان خان، إذ كان أخوه يمالىء السلطان عليه لأيمان يزعم أخيه لزومها إياه، ومواثيق يدّعي انعقادها عليه، ويظهر البراءة على ألسنة رسله من فعلات أخيه أيلك في منابذته ومكاشفته، والتخطي إلى حدود مملكته. ويورك أيلك الذنب عليه في إغرائه بما أتاه، ومكاتبته في البعث على ما جناه. ولما ظهر لأيلك أن أخاه طغان خان قد جعله عرضة للجناية، وقلّده طوق تلك المكاشفة براءة منه، وخذلانا إياه، وشقّا لعصاه، وإسلاما له بما كسبت يداه، رأى أن يبتدىء به، فيحسم داء قرابته، ويغسل بسيفه وضر جنايته. فجمع جيوش ما وراء النهر لقصده، واستدفاع مكره وغدره. وسار حتى إذا جاوز أوز كند نحوه، سقطت ثلوج سدت عليه مسالك العقاب المفضية إليه، فارتد عن وجهه إلى قابل، حتى طاب الهواء، وانحسر الشتاء، وخفّت الأنداء، فكّر عائدا على ثأره، لفت المشير موهنا بناره. وكان ورد رسلهما في التنازع الذي تقدم ذكره، فتراجعا القول في البراءة عن جناية العبور، وإحالة بعضهم على بعض في نقض المواثيق والعهود، فخلاهم السلطان في لغط القول، حتى وصلوا بحرّ النفار إلى برد الاشتفاء. وأراد السلطان يمين الدولة وأمين الملة بعد ذلك قراهم، فأمر بتعبئة جيوشه، وتغشية فيوله، فرتب العسكر سماطين عن جنبتيه في هيئة لو رآها قارون، لقال: يا ليت لي مثل ما أوتي محمود، إنه لذو حظ عظيم.

وصفة مقامه أنه اصطف من غلمانه على التقابل قرابة ألفي غلام من عقائل الترك في ألوان الدبابيج من بين سود وبيض وحمر وخضر وكهب وصفر. وفيما يقرب من موقفه خمسمائة غلام من خاصته على ترتيبهم في مثقلات الروم، بمناطق من ذهب مرصّعة بالجواهر، وأعمدة من جنسه فوق الأكتاف والعواتق، وقد أطاف بهم من عظام الفيلة أربعون فيلا على المحاذاة، غواشيها دبابيج الروم بعصا ئب ومعاليق من الذهب الأحمر، المرصعة بكل جوهر ثمين، وياقوت وزين. ووراء السماطين سبعمائة فيل في تجافيف مشهرة بألوان، متسوّرة بالحراب والمرّان. وعامة العسكر في سرابيل قد كدّت القيون، وردّت عن اجتلائها العيون. ورتب الرجّالة أمام الخيول في الترسة الواقية،

والجنن الحامية، والسيوف المرهفة، والعوامل المختلفة. وقام بين يديه حجّابه كالبدور في ظلم الديجور، قابضين على قبائع سيوفهم، هائبين قدره، وناظرين أمره.

وأذن لهؤلاء الرسل على هذه الهيئة حتى لقوه، وأقاموا من رسم الخدمة ما افترضوه. ثم عدل بهم إلى الموائد في دار قد فرشت بما لم يحك غير الجنة، مزيّنة للمتقين، معرّفة للعارفين. وفي كل مجلس دسوت من الذهب الأحمر بين جفان كأحواض، وأطباق كبار قد نضد بها من صدره إلى قدمه بما يشاكله من الأواني الفائقة، والآلات الفاخرة الرائقة. وهيىء لخاص مجلسه طارم قد جمّعت ألواحه وعضاداته بضباب الذهب، وصفائحه وثقت بمسامير من جنسه، وفرش من الدبابيج المثقلة بما لا تدرك الأبصار منه غير حمرة الذهب، وفي الصدر منقلة مقسومة ببيوت مضلعة ومستديرة، يشتمل كل منها على نوع من الجواهر التي أعيت أمثالها أكاسرة العجم، وقياصرة الروم، وملوك الهند، وأقيال العرب. وحوالي المجلس أطباق ثخان من الذهب مملوءة بالمسك الأذفر، والعنبر الأشهب، والكافور العطر، والعود العبق، وهلمّ جرّا إلى ما يملأ الأبواع والأيدي من أترجّات مصوغة، ونارنجات مصنوعة، وما يشبه الفواكه من عقيان وبذخش وبهرمان، إلى أوان لم يسمع بمثلها رقّة أجسام، ودقّة صنعة وإحكام.

وطاف على الرسل ولدان كالدرّ المنثور، واللؤلؤ المكنون، براح كالماء المعين، ورضاب الخرد العين، إلى أن أشفقوا من عثرات العقول، فاستأذنوا للقفول، وصرفهم السلطان يمين الدولة وأمين الملة بعد هذه المأدبة، ورآهم بما أوجبته همّته من تحقيق أمانيهم، ورعاية حق الصلح فيهم. وبقي الأخوان على جملتهما في المنافرة والمناورة، والمكاوحة والمكافحة، إلى أن توسط السفراء بينهما، ففصلوا الأمر على ما كف كلا منهما عن صاحبه، على ما سنورد ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى.

ذكر فتح قصدار

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة يراعي ما يتجدد من أخبار الأخوين أيلك وطغان خان فيما تنازعاه من الأمر، فلما بلغه اشتجار ذات بينهما، استخار الله في قصد قصدار إذ كان صاحبها قد ألمّ بجانب المجانبة، وأخلّ بحمل مال المقاطعة، اعتزازا بمناعة مملكته، واغترارا بحصانة الطرق المفضية إلى حلته.

وفصل السلطان عن غزنة إلى بست في جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعمائة مورّيا بقصد هراة، حتى انتشرت الأخبار بعزمه، واستفاضت الأحاديث بظاهر أمره. ثم ركض إلى ناحية قصدار في المغلّب الغلب من رجاله، ركضة طوت تلك الجبال الوعرة، والمسالك الصعبة، فلم يشعر صاحب قصدار إلا بغلمان السلطان حول داره، قبل أن يكتحل بضوء نهاره، أو يحفل بشدّ إزاره. فنادى الأمان الأمان، وبرز فخدم السلطان. وألزمه السلطان بخمسة عشر ألف ألف درهم من جملة ما كان ألظّ به من أموال عمله، فالتزمها، ونقد أكثرها.

وقبض السلطان على عشرين فيلا ضخاما هائلة كان اعتقدها ليومي بؤسه وبأسه. ووكّل به من استوفى المال عليه، ورجع عنه بعد أن رعى حق طاعته وضراعته باستخلافه على ما كان يليه، وبسط يده في أطراف عمله ونواحيه. ورجع عنه إلى غزنة ظاهرا نجحه، فائزا قدحه، واريا زنده، عاليا يده، صنعا من الله تعالى لمن يجتبيهم من خيار خلقه لعمارة أرضه، وإنارة حقه، والله يعطي ملكه من يشاء والله عزيز حكيم.

ذكر الشارين الوالد أبي نصر محمد بن أسد، والشاه ابنه محمد وما أفضى إليه أمرهما

قد كان يلقب كل من يلي أمر غرشستان بالشار سمة مصطلحا عليها تنبىء عن معنى التمليك، ورتبة الإجلال والتعظيم. وكان الشار أبو نصر واليها إلى أن أدرك ولده الشاه وفيه لوثة مشهورة، فغلبه على الأمر بقوة شبابه، واستظهاره بمن شايعه من أصحابه، فاعتزل أبوه مخليا بينه وبين ما كان يليه، ويتفرّد بالنظر والتدبير فيه، ومقتصرا على دراسة الكتب ومطالعة الأدب، إذ كان بها مولعا، وبلذّتها دون سائر اللذات مقتنعا.

و كان منتجع الأفاضل من أعماق البلاد، ينتابه منهم كل مبدع خطا وبيانا، أو مبدع به بلوى وامتحانا، فلم ينشب بعد أن ينتابه ويشهد بابه حتى يستخصب جنابه، ويستجزل برّه وثوابه.

وكان صاحب الجيش أبو علي محمد بن محمد بن سيمجور لما افتتح باب الاستعصاء على الرضا نوح بن منصور رام أن يستضيف ولاية الغرش إلى ما يليه، وأن يجد من جانب الشارين طاعة له في أوامره ونواهيه. فأظهرا التمرد عليه كراهة لاختياره على أرباب الملك الذين أعطوهم المقادة قديما، وسلموا لطاعتهم تسليما، وإدلالا بحصانة صياصيهما وقلاعهما، ومناعة حواشيهما وأشياعهما، ومحاماة للرضا على حقوق طاعتهما وسوابق حرماتهما، إذا همّ أبو علي بمنازعتهما ملكا ورثاه، أو طمع في فضل مال اقتنياه، فلم ينهنه أبو علي أن جرّد إليهما أبا القاسم الفقيه- أحد أنياب دولته وأركان دعوته- في جيوش كثيفة، وخيول على الآلاف منيفة، فناهضهما في عقر دارهما، متوقّلا إليهما فوارع تصافح السماء، وشوامخ تناطح الجوزاء، ومتوغّلا مخارم تمرّد على السلوك مرود السموم على غلاظ السلوك. يناجزهما في تلك المقامات التي يدار عندها بالرؤوس، ويغشى على النفوس، ويلجئهما من مضيق إلى مضيق، ويفجعهما بفريق بعد فريق، حتى أجلاهما عن قرارة بيتهما إلى قلعة ورثاها أباهما في أخريات هاتيك الجبال، تزلّ عن أعاليها أقدام الغيوم، وتحلّق دون مبانيها كرام الطيور.

و ملك عليهما حصون جبالهما، وسهول ديارهما ومحالهما، يجبيها ويتتبع ما ينسب إلى كل واحد منهما فيها، إلى أن صمد الأمير ناصر الدين سبكتكين صمد أبي

obeikandl.com

علي فاسترد أبا القاسم الفقيه شغلا بالبازل القرم عن الثني، وبالعقاب المنقضّ عن الكركي، وعلم أن قد أتى الوادي فطمّ على القرى.

وانضم الشاران إلى الأمير سبكتكين في نصرة الأمير الرضا نوح بن منصور، فانتقما من أبي علي حين ولّى هزيما، وتعرّى عما تولّاه واقتناه حديثا وقديما، وأجفل نحو جرجان لا يملك رأيا ولا عزيما. ولم تزل بعد ذلك حالهما على جملتهما في الأمنة والسكون، والجاه المصون، إلى أن ورث السلطان يمين الدولة وأمين الملة خراسان حكما لله في أرضه ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف:١٢٨].

ولما أذعن ولاة الأطراف للطاعة، والتزام حكم التباعة، وإعطاء صفقة البيعة وفرع المنابر بإقامة الخطبة، وكلهم سمع وأطاع، وبذل في الخدمة والقربة المستطاع، أنهضت إلى الشارين في أخذهما بإقامة الخطبة له أسوة أمثالهما من ولاة الأطراف وضمناء الأعمال، فتلقياني بمفروض الطاعة، والحرص على الاقتداء بالجماعة، وأمرا بالخطبة، فأقيمت باسم السلطان بكورة الغرش في شهور سنة تسع وثمانين وثلثمائة.

وورد على الشارين كتب المنحازين إلى بخارى عن هزيمة مرو يذكرون أنهم على الاستعداد والتجرد للمعاد فلينظراهم عن قريب، وليأخذا من الانتصار ودرك الثأر بنصيب، فبعث الشار أبو نصر بها إليّ درج رقعة أفردني بها يسألني تأملها وإنفاذها بأعيانها إلى السلطان ليقرر حاله في الموالاة، ومخالفة ذوي المناوأة والمعاداة، فكتبت إليه في جواب رقعته:

«تأملتها- أطال الله بقاء الشار- فوجدتها تدل على خدود قد عمل فيها صيقل الوقاحة، كمجدّل يتوعد صاحبه بأن يضرب فكيه إن لم يكف عنه كفيه، وما نحن في هذا المعنى وفيما أولى الله مولانا السلطان من الحسنى إلا كما قال المتنبي[1]: [الطويل]

ولله سِـــرٌّ فِـــي عُـــلاكَ وَإِنَّمَـــا كَـلامُ العِـدَى ضَـرْبٌ مِـنَ الهَـذَيَانِ

وأما قولهم: إنا على الانتصار وطلب الثأر، ف ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]. على أنا نقول[2]:

لـــئن كـــان أعجـــبكم عـــامكم فعـــودوا إلـــى حمـــص فـــي القابـــل

---

(١) انظر: الخزانة ٢٠٥/١، ويتيمة الدهر ١٥٤/١.

(٢) انظر: نهاية الأرب ٢٢/٣٠، وصبح الأعشى ٣٧٧/١٢.

فإن الحسام الخضيب الذي قتلتم به في يد القاتل

فإن قالوا: كان العود أحمد، فذاك. ولكن لمن حمد البدء لا لمن ذمّ، وصادف فيه ما سرّ لا ما ساء وغمّ، وقد رأوا في بدء لقائهم كيف شرقت السيوف بدمائهم، وتحكمت النسور في أشلائهم، فإن نشطوا ثانية فهاتيك الصوارم ماضية، والقشاعم ضارية، وما أشبه حال القوم بما قام به ابن الأشعث خطيبا في قومه، فقال:

يا قوم، إنه ما بقي من عدوكم إلا كما يبقى من ذنب الوزغة، تضرب به يمينا وشمالا فما تلبث أن تموت، وكذا المصباح إذا قارب انطفاؤه توهّج قليلا، ثم لم يغن ذلك من حينه فتيلا.

فالحمد لله الذي جعل سيوف مولانا تخطب على منابر الرقاب، إذ جعل ألسنة أعدائه تخطب فوق أسرة الأذقان، وإليه الرغبة في أن يطيل بقاء مولانا ما طلع يوم من حجاب أمس، وطلع نفس من قرار نفس، منصورا على من نابذه وناوأه، ليودعه من بطن الأرض ملحده ومثواه، وعن كتب سيرى الشار كيف يفعل الله بالغاوين، ويلبسهم خزي الباغين، ويردهم أسفل سافلين، وقبل وبعد الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ».

فكان الأمر على ما حدست وتفرّست، فإن أيلك انحدر إليهم، فملك عليهم دار الملك ببخارى وأخذ معظم القوم أسارى، وشرّد الباقين في الأرض حيارى.

نعم، وطالعت الحضرة بصورة أمر الشارين في الطاعة، حتى حظيا من الإكرام بما توقّعاه، وحليا من الإعزاز والإكبار بأكثر مما تطلّعاه. وحضر الخدمة بعد ذلك الولد المعروف بشاه شار، فصادف ما استحقه من ترحيب وترتيب، وحظ من الإيجاب والإيثار رغيب.

وغبر مدة على هذه الجملة، وهو بين نخوة الاغترار بسمة الملك ولوثة في الطبع قلما يسلم أمثالها عند الملوك من الهلك، وهو على كل ذلك محتمل، وبلطف القبول والإقبال مقتبل. واستأذن من بعد للانصراف وراءه، فصادف إذنا بالمبارّ الكريمة مشفوعا، وإلى الخلع الشريفة فوق الهمة المنيفة مجموعا، وعاد إلى أفشين قرارة بيته ومثابة عزّه، إلى أن عنّت للسلطان غزوة أحب أن يحتشد لها فضل احتشاد، ويستظهر فيها بما حواه من قوة وعتاد، وأمراء جيوش وقواد. وأمر بالكتاب إليه في استنهاضه أسوة أمثاله، ثقة بخصوص حاله وثمرة ما أفاض عليه من سجال أفضاله، فلزّ به

الخذلان عن المكان، ولقّنه معاذير واهية الأركان، وظل يتردد بين الحران والإذعان، إلى أن حقّت عليه كلمة العصيان، فأعرض السلطان عند ذلك عن تدبيره، وأقبل على ما أهمه من أمر مسيره، حتى إذا دان له ما قصد، وظفر بمن كند و تمرّد، و عاد بالفتح خافقا لواؤه، والنجح شارقا ضياؤه، جدّد مكاتبته إيمانا له من خيفة إن أوجسها، وإيناسا من وحشة إن لابسها، واستبقاء للصنعية عنده من أن يختضد أشاءها، أو يقتطع دون الماء رشاءها، فلم يزدد إلا نفورا وكفورا، وكان أمر الله قدرا مقدورا. وعند ذلك جرّد السلطان حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش، وفتاه والي طوس أرسلان الجاذب فيمن ضمهم إلى جملتهما، ورسم لهم المسير تحت رايتهما لمناهضة الشارين، وامتلاك الغرش عليهما، وإحاقة وبال العصيان وكفران الإحسان بهما. فنهضا في العدة والعديد، والبطش الشديد، واستلحقا أبا الحسن المنيعي الزعيم بمرو الروذ لمكانه من العلم بمعاطف تلك السبل، ومخارم تلك الشعاب والقلل، فسارا إليهما في رجال قد كدمتهم التجارب، ونيّبتهم النوائب، يعجمون بأطراف الثنايا على الزبر، ويدخلون ولو خرت الإبر. ودمّرا على الشارين تلك الناحية، فأما الشار الكبير الوالد أبو نصر فاستشف أستار العاقبة، واغتنم شعار العافية، ولاذ بالأمان إلى الحاجب الكبير التونتاش مظهرا البراءة من فعل ولده، وصادعا بما اشتهر في الخاص والعام من عقوقه وتمرده، وتحمل بشفاعته إلى السلطان في ملاحظته بعين من لم يرتكب جريرة، ولم ينغل سريرة، ولم يبدل في الطاعة والإخلاص سيرة. فحدره إلى هراة بين ترفيه اقتضته طاعته، واحتياط أوجبه خلاف الابن وممانعته. وكتب بحاله إلى السلطان، فورد في الجواب ما آمنه رهق المؤاخذة وعنت المعاقبة.

وأما ابنه الشاه فتحصن بالقلعة التي أواها أيام السيمجورية، وهي التي سبق وصفها في عزة الجوانب، ومناعة المناكب، وصعوبة المصاعد، والسمو على متون الغيوم الرواكد. واستصحب إليها خواص غلمانه وحزانته، وسائر حاشيته وبطانته، فقصده الحاجب أبو سعيد التونتاش وأبو الحارث أرسلان الجاذب في الجمّ الغفير من أعيان القواد وأبطال الأفراد، وتقاسما أركان الحصار قذفا بالمجانيق المنصوبة، والعرادات الموضوعة، ومناوشة للحرب من جهات كادت حشاشات النفوس من هول المقام أن تذوق كؤوس الحمام قبل ذوقها بوقع السيوف والسهام.

واصلا صبوح تلك الحروب بالغبوق، حتى هدما أحد أسوار الحصار، فوضعاه بالحضيض من وقع الجلاميد وصدم المجانيق. وتسلقها أهل العسكر منحين على سائر الأسوار كالعصم واقلة في شمّ الهضاب، أو الأرانب هاربة من غضف الكلاب.

واشتبكت الحرب على تلك الحال ضربا بالسيوف القواضب، وأخذا باللحى والذوائب، حتى سالت المذانب من دفع النحور، واحمرّت المتالع من علق الصدور. ورأى الشاه عند ذلك من هول المطّلع ما لم يكن ثم كان، فدعا الأمان الأمان. هيهات، إن غضاب النفوس إذا صادفت نجح المرام ووجه التشفي بالانتقام لموقورة الآذان، أو تفعل أفعالها، وتنال من درك الثأر منالها. وما زالت تلك دعواه وهذه حالهم حتى أخذوه أسرا، واستنزلوه عنوة وقسرا، واستبيح ذلك الحريم بما حواه من درهم ودينار، ومال واستظهار.

وأخذ حاجبه ووزيره، بل نديمه وسميره، بل قليله وكثيره، فوضع عليه الدّهق حتى أعفى بما عرفه من ذخائره، وخبره من ودائعه، وحلب عامة أوليائه وعماله والمتصرفين في أمور أمواله، حتى عروا عن لباس اليسار، وعزّت أخلافهم دون الاستدرار. وقوطع أبو الحسن المنيعي عن ارتفاعات الغرش على ما علم ارتفاعاته منه قبل للشار، فتمكن منها، واستخلف هناك من تقوى يده في عمله، وشحن الحصار بكوتوال يوثق بأمانته وجلده، وبعث السلطان بعض خواص غلمانه لنقل الشار المأسور إلى حضرته، على سبيل إرفاق له من جهته، فلما سلم إليه، حمله في وثاقه نحو غزنة.

وسمعت بعض الثقات أنه اتفق للغلام أن يكتب إلى أهله بخبره، وما لقيه في حالتي ورده وصدره، ويبشّرهم بمنصرفه، فاستدعى الشار في عقاله، وأمره بتولي ذلك بخط يده، فأنعم تفكرا، ثم أظهر تشكرا، وكتب ما هذا معناه:

«أيتها القحبة الرحبة، أترينني أغفل عما أحدثته بعدي من خيانتي في الفراش؟! وتمزيق ما خلفته عليك من مالي وتمحيقه في كل أنواع الفساد. لقد أنهي إلي جميع ما ركبتيه من فجور، وشربتيه من خمور، وضيعتيه من مالي في كل منكور ومحظور. وها أنا عائد إليك، وأيم الله لأضعنّ عليك الدّهق وعلى والديك، ولأدقّن يديك على رجليك، ولأجعلنّك عظة لربات الخدور في الدور، يا كذا وكذا... ».

واستأنف الشتم حتى علم أنه قد اكتفى واشتفى. ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الغلام فطيّر به بعض ثقاته، فقامت القيامة على أهله، وخفن عدوا سعى بهنّ، وحرّف من صورتهن، وفكّرن في أمورهن، فوجدن أصوب الآراء تفريغ الدار، وتقديم الاستتار.

وفعلن ذلك دائبات على القلق، ثابتات على الجوى والأرق. فلما وصل الغلام إلى الدار، فإذا هي كالقاع القرق لا يلمّ بها نافخ ضرمة، ولا معلق وذمة، فبقي حيران وسأل الجيران، فأخبروه بصورة الكتاب، وما خيف من الفضيحة بالعقاب، فدعا وا ويلاه، ولعن الكاتب ومن والاه، والكتاب ومن أملاه. واحتال في ردّ العيال بضمان أكّده، وإحسان جدّده.

و بلغ الخبر السلطان، فضحك لا حتيال الشار عليه، وقال: كذا حقّ مثله ممن يستخدم الشار كاتبا، ووضع حرمته بالأمس جانبا. ولما حمل هو إلى الباب، تقدم السلطان بتجريده للسياط تأديبا له على ما أغفله من حق النعمة، وهتكه من ستر الحشمة، فجرد لها، وأخذته عذبات العذاب، فأكثر الضراعة والاستكانة، وشكا الذلّ والمهانة. فلما استوفى التأديب حقه، دون أن يبلغ النكير منتهاه، والعقاب أمده ومداه، أمر بإنزاله، واعتقاله في موضع يصلح لأمثاله، وأمر بمواساته والتوسيع عليه في أقواته، ومداواة جراحاته من حيث لا يشعر بإذنه فيه، وفيما أباحه له من الترفيه، كرما سرى في تضاعيف مزاجه ولا سراية الخمر في عروق البشر، والماء في أصول الشجر.

والتمس إسعافه بغلام كان حظيا عنده، فرد عليه، وأعيد بعض ما يصلحه إليه.

فأما أبوه المقيم بهراة فأذن له في ورود الباب، ولوحظ بعين الإيجاب. وابتاع السلطان منهما خاص ضياعهما بالغرش حلا لها عن عقدة السّرّية، واستضافة إياها إلى جملة ضياعه الملكية، وأمر لهما بأثمان ما باعاه نقدا، صيانة لهما من مس الفاقة وذل الحاجة.

ورفرف الشيخ الجليل على الشار أبي نصر بجناح الإكرام والرعاية، حتى أتاه الداعي، وقام به الناعي، وذلك في سنة ست وأربعمائة.

ذكر وقعة ناردين

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة لما استصفى نواحي الهند إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تتل بها قط سورة أو آية، فرحض عنها أدناس الشرك، وقشع دونها أغباش الكفر، وبنى بها مساجد يقوم فيها دعاة الله بالأذان الذي هو شعار الإيمان، رأى أن يطوي تلك الديار إلى واسطة الهند منتقما لله ممن يجحد توحيده، ويضع لعبادة الأنداد من دونه تعالى خده و وريده، ومحكّما فيه سيوفا طبعت على غرار الإسلام، وسقيت بماء الإيمان، وصينت في قراب دين الله، وانتضيت بأيدي الأخيار والأبرار من أولياء الله. فندب الرجال، وفرّق الأموال، وأخلص اليقين، واستنصر الواحد المعين.

ونهض في الطمّ والرمّ، والليل المدلهمّ، وذلك في سنة أربع وأربعمائة.

وسار في أخريات الخريف ثقة بطيب الهواء من جانب الجنوب، فاتفق عند اقتحامه تلك الديار أن سقطت ثلوج لم يعهد قبلها مثلها، فسدّت مخارق تلك الجبال، وسوّت بين الأباطح والتلال، وكلح وجه الهواء كلوحا أثرّ في الحوافر والأخفاف، فضلا عن المحاسر والأطراف، وضلّت مهايع الطرق فلم تعرف الميامن من المياسر، ولا المقادم من المآخر. واضطرت الحال إلى الانعطاف إلى أن يأذن الله ثانيا في الانصراف، ولكل شيء حدّ محدود، وأمد ممدود.

وأقبل السلطان على استئناف العدة والعتاد، واستكمال الميرة والأزواد، واستدعاء أعيان الغزاة من أطراف البلاد، حتى إذا تمت العدة والعديد، وباهى العقد بأخواته الفريد، وتضامّ الناس كقزع الخريف من كل وجه منشورا، وعن كل أوب محثوثا ومحشورا، وأقبل الربيع بطيب المقيل، واعتدال برد الغداة والأصيل، استخار الله في الرحيل، وسار كالبحر الأخضر تضربه الأعاصير، والأمر الحتم تجنبه المقادير. فغدت وحوش الأرض مأسورة، وطيور الجوّ مقهورة، ولو أحست الأرض لرنّت من ثقل الحديد، والمشي الوئيد. وحثّ الأبطال فوق القبّ القياديد، وساق أمامه أدلة يهتدون أعماق تلك البلاد، ولا الشمس عليها طالعة، ولا النجوم بينها مستقيمة وراجعة. وحث الركائب شهرين بين أنهار عميقة الأغوار، بعيدة ما بين الأقطار، وبواد تضل في أرجائها أسراب اليعافير، وتحار في دهنائها أفواج العصافير، حتى إذا قارب المقصد عبأ الخيول

كتائب، وميزها عصائب، ورتبها كواكب، وقسّمها مناسر ومقانب. ونصّب أخاه الأمير نصر بن ناصر الدين في الميمنة في كماة القواد، وحماة الأفراد. وأرسلان الجاذب في الميسرة في البهم الذكور، والبزل الفحول. وجعل أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي على المقدمة في مساعير العرب، أحلاس الظهور، وأبناء الصوارم الذكور. ورتّب في القلب الحاجب التونتاش وسائر خواصه وغلمان داره، رجال إذا اصطفوا فالجبال الشواهق، أو زحفوا فالسيول الدوافق. ونذر بهم عدو الله ملك الهند، ففزع من فاجيء الفزع إلى من حوله من تكاكرته، وأعيان جيوشه وناصرته، ولجأ إلى شعب جبل لحج المدخل، خشن المتوغل، صعب المرتقى والمتوقل، مستعصما بالاحتجاز عن البراز، وبالاحتراس من وقع البأس. وسدّ مفغر الجبلين بفيلة له يراها الراؤون هضابا نابتة، وجبالا ثابتة. وبثّ النفير في أطراف مملكته يستنهض من يحمل حجرا، فضلا عمن يلقم القوس وترا، أو يحسن بالسيف أثرا. ومدّ في طول المطاولة كي يلقى عسكر السلطان بقوة وافية، وعدة متوافية، أو يلجيء أولياء الله إلى الإخلال من فرط الملال، أو النفور من ضيق الصدور، ولم يعلم أن الله من وراء المؤمنين، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:١٨].

ولما علم السلطان من نيته في إرجاء القتال وتأخير النزال، دلف إلى عدو الله عز وجل بقلوب قد صقلها التوحيد، وبشّرها الوعد وأنذرها الوعيد، ورماهم بالصّيلم من رجّالة الديلم، وبالشياطين من الأفغانية المطاعين، رجال كالآجال مطوحة بالنفوس، مذللة للأعين الشوس، أو كالليوث أخرجها الجوع، وأعياها إلى أشبالها الرجوع، ينفذون في الأسداد نفوذ المثاقب في العيدان، أو البيارم في الحيطان، ويفرعون البواذخ كالوعول، وينزلون عنها كمنحدر السيول. وواصلها عليهم أياما تباعا، يجذبهم بصدق البراز إلى البراز، جذب النار للسّليط، والمغناطيس للحديد، فكلما فارقوا تلك المضائق، التقطهم الفرسان كما تلتقط الأفراس بيادق، ولم تزل هذه حالهم حتى انضمّ إلى اللعين أكثر من والاه، ولبّاه معظم من دعاه، وعند ذلك احتشد للبروز مستندا إلى الجبل، من حوله الأفيال كالقلل، فجدّ المصاع، واحتدّ القراع، وحمي الوطيس، واستوى المرؤوس والرئيس، وصار اللقاء كفاحا، فمن آخذ بالتلابيب، ومناقر كاليعاقيب،

ومضارب ما بين الرؤوس إلى العراقيب، وكلما أشليت الفيلة للتهويل والتفخيم، والحطم بالأظلاف والخراطيم، مطرتها سحائب الزانات متلوّية كالأراقم، منسابة إلى حدق العيون أو ثغر الحلاقم. ورأى الكافر موقع أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي من الغناء، وضراوته بإسالة الدماء، فانتحاه بأخشن من في جملته شوكة، وأعظمهم شكة، حتى أثخنوه ضربا على الهام، وحطما من خلف وقدام، وهو كالحرون ثابت لا يمل شرف مقامه، ولا يكل دون الضرب بحسامه، متسمحا بالروح في نصرة الدين وطاعة رب العالمين.

ورأى السلطان إنحاء الكفرة عليه، فأمده بكوكبة من خواصه لا ستخلاصه، فاستنقذوه إلى السلطان ممشوقا بالسيوف، منقوطا بالأسنة كالحروف، فأمر له بفيل يستريح إلى سعيه عن ألم الجراح بجوارحه، فصار ملكا له يتميز به عن أعيان أهل عسكره.

ولم تزل الحرب على حالها حتى أهبّ الله ريح النصر لأوليائه، وأدار دائرة السّوء على أعدائه، فأخذتهم سيوف الحق تحسمهم بين كل مصاد ومنعطف واد، ومدّخل ومغار، ومعتسف ومنار. وملكت عليهم الفيلة التي كانوا أعدوها حصونا واقية، فصارت عليهم عباقية باقية.

وأفاء الله على السلطان وأوليائه غنائم رحضت الصدور عن رين الحسد، لا شتراك الكافة في الغنى المقصود، واستوائهم في كفاية الموجود. وفتح الله ناردين فتحا طرّز به شعائر الإسلام إذ لم تبلغه راية الحق من لدن عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة، عزا كتب الله له على يده، وصنعا أتاح الله التوفيق والتيسير له من عنده.

ووجد في بيت صنم عظيم حجر منقور دلّت كتابته على أنه مبني منذ أربعين ألف سنة، فقضى السلطان من جهل القوم عجبا، إذ كان أهل الشريعة الغرّاء، والحق المنزل من السماء، على أن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنّا منها في الألف الأخير، وكل ما تساندت به الأخبار من أمارات الساعة موجود، وبأبصار العيون وبصائر القلوب مشهود.

واستفتى فيه أعيان الفقهاء و العلماء، فكل أجمع على إنكار ما فهم من ذلك المنقور، وعلى تزييف مثلها من شهادات الصخور.

و عاد السلطان وراءه بتلك الغنائم العظيمة، فكاد عدد الأرقّاء من العبيد والإماء يزيد على عدد الدهماء، ورخصت قيم المماليك فصار أصحاب المهن الخاملة فضلا عمن فوقهم من السوقة يعتقدون عدة من تلك المماليك الروقة، وذلك فضل الله الذي أعز به الدين، وأذل الإلحاد والملحدين، والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

obeikandl.com

ذكر وقعة تانيشر

كان قد أنهي إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة أن بناحية تانيشر فيلة من جنس فيلة الصيلمان الموصوفة في الحروب، وأن صاحبها غال بها في الكفر والجحود، وغير آل جهدا في الطغوى والعنود، وأنه محتاج إلى ذوقة من كأسه، وحرقة من جمرات بأسه، ليعلم أن عزّ الإسلام عامّ، وأن له من سطوة الله سهما كما لسائر أفيال الهند سهام. فعزم السلطان على غزوة إليه يرفع بها راية الإسلام، وينسخ معها ولاية الأصنام، ويدع الكفر عليها مجبوب الغارب والسنام. وسار في أولياء الله الذين قد نشأوا على القراع، نشأ الأطفال على الرضاع، وضروا بدماء الكفار ضراوة الصقور ببغاث الأطيار. وقطع إلى المذكور أودية لم يقطعها غير طائر، أو حيوان عائر. وخرق سباسب لم يطأها نعل ماش، ولا خف حافر.

وجهدهم في تلك القفار علالات الشفاه، وبلالات الأفواه، فضلا عن سائر الأقوات حتى صنع الله لهم بأن بدوا منها إلى فضاء يفضي إلى ناحية المقصود، ودونه نهر صخّاب، أرضه ظراب، وصفاح كظبي السيوف حداد، يلقي بشاطئه شعب جبل قد استند إليه الكافر مستظهرا بفيوله، ومتكثرا بأفناء رجاله وخيوله. واحتال السلطان لفتّاك عسكره، في مجاوزة النهر إلى أعداء الله الكفرة الفجرة، حتى عبروه من طريقين، وشغلوهم باليأس من كلا الجانبين. ومهما جدّ الكفاح بين الفريقين، أمر السلطان بحملة على الكفار في مخاضات النهر الهائل، والماء الصخب الشائل، تزعجهم عن طرف الساحل، وتقحمهم أشداق تلك الشعاب والمداخل.

واشتدت الحرب ضربا بالخناجر في الحناجر، وبالقواضب في المناكب، وأولياء الله في كل حال ظاهرون، والكافرون هم الصاغرون، حتى إذا كاد يهرم شباب النهار، حمل المسلمون من جميع الجهات حملة أو جرت بهم لهوات تلك المخارم مضطرين، فخلفوا الفيلة التي كانوا بها مغترين. وتبعها أولياء الله يردّون الأعظم فالأعظم منها إلى موقف السلطان، فلم يفتهم إلا ما جدّ به في الهرب، أو ضاق دون اقتناصه مجال الطلب، وصب من ماء أولئك الأرجاس ما نجس به النهر الحاجز على طهارته، وامتنع من الشرب على غزارته. ولو لا أن الليل ستر أثرهم، لا ستلحم القتل أكثرهم، صنعا من

الله لدين بعث به رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم، وعلى آله الذين ارتضى، مظهرا له على الدين كله ولو كره المشركون، فهو على الازدياد إلى يوم التناد.

وانصرف السلطان بأولياء الله غانما موفورا، وظاهرا منصورا، ومحمودا كاسمه مأجورا، وقد غنم ما يكلّ عن ذكره أنامل التحرير، ويضيق عن إثباته أدراج الأضابير.

وتطايرت البشائر به في الآفاق، وخفقت عليها أجنحة الغروب والإشراق، والحمد لله رب العالمين، على عزّ الإسلام والمسلمين.

obeikandl.com

ذكر الوزير أبي العباس الفضل بن أحمد وما انتهت إليه حاله إلى أن مضى لسبيله

قد كان الوزير أبو العباس الفضل بن أحمد من خاصة فائق الملقب بعميد الدولة ومن كفاة بابه، وثقات أصحابه. وكان على البريد بمرو أيام سالارية السلطان بنيسابور، فنمي إلى ناصر الدين سبكتكين خبر قوته وأمانته، فكتب إلى الرضا يستوهبه لوزارة السلطان، وكفاية أعماله، وتدبير أمور أمواله ورجاله، فأوجب إجابته إلى ملتمسه، وخوطب بالبدار إلى نيسابور على مقتضى مثاله، فاعتمده السلطان للوزارة، واستكفاه مهمات الإمارة، بعد أن كان يرى مقام الشيخ الجليل شمس الكفاة أبي القاسم أحمد بن الحسن في الكفاية كتابة وحسابة، وأصالة وإصابة، وهداية ودراية، وحماية وجباية، إذ لم يكن على طراءة شبابه بين لداته أغنى منه غناء، وأمضى مضاء، وأذكى ذكاء، وأدهى دهاء، غير أن الأمير سبكتكين جنى عليه في أبيه عند اعتماده لوزارة بست وتدبير أعمالها وأموالها جناية سبق السيف فيها العذل، إصغاء منه إلى عداته فيما شققوه فيه من رفيعة، ولفّقوه عليه من سعاية ووقيعة، فاستوحش منه استيحاشا من بادرة فعله. والمسيء نفور، والقلوب عن ذوي الإساءة صور. وكره السلطان الاستبداد على أبيه في انتصابه حسب ارتضائه واستكفائه وفق المخبور من وفائه، طاعة له في اختياره، واتباعا لفلك رأيه تحت مداره.

وقضى الله بأن يكون ما يليه حتى يعترف خراسان بأنه عذيقه المرجّب وجذيله المحكّك، يتتبع ما يفسده الغير بالاستصلاح، ويستدرك ما أحرضته أيدي الاجتياح، ويداوي كل حال بدوائه، ويرد غائر الماء إلى لحائه، فأجرى الوزير أبو العباس الأمور مجاريها على جملة لم يعرف فيها غير الجباية والاستدرار، وقصد التوفير دون الاستعمار، حتى جبى مالا عظيما، سنين عدة. إذ كانت خراسان بعد مكسوعة بأغبارها، لم تنتزف منها دواعي اللبن، ولم ينتزع عنها كواسي السمن. فلما احتلبها انتزافا، واستنفد ما في ضرعها إسرافا، ومن قبل ما قد حال بينها وبين خصب المراتع، وبرد الموارد والمشارع، وضعت له ما على ظهورها من فضول دسم، وسمحت بما وراء

عظامها من نقي مقتسم، حتى صارت من فرط الهزال والعجف، كالأهلة المحنيّة، بل الأخلّة المبريّة.

و تداعى بالخراب معظم الضياع، ووقعت القني بين القصور والانقطاع، وشرّد في البلاد أكثر الأكرة والزرّاع. فعندها أخذ الجار بذنب الجار، وألزم القارّ مؤونة الفارّ، حتى تمت البلوى، وعمت الشكوى، وشملت خراسان نوائب البؤس، وذهبت حرائب النفوس. وصدمتهم سنة القحط بعقبها، فصار الغني محسورا، والمتوسط مفقورا، والفقير مقبورا، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨].

وبقيت في رقاب خراسان بقايا كل متعذر ومتكسر، وتاو ومتحير، لو أذيبت عن آخر فقرة منها لم يف ببعضها، فضلا عما جمعته أقلام الاستيفاء منها، فأظهر السلطان ضجرا من نحير الأموال وتراجع الارتفاعات، فطالب الوزير منها بما اقتطعه، وأتواه وضيّعه، وهو يرجع القول على سبيل الدالة بين البراءة والإحالة، فمهما عضّه العتب بثقافه أظهر الاستعفاء، وجلب إلى نفسه البلاء. وأسلم النفس اختيارا، وآثر الحبس قرارا.

وتوسط الملأ بين السلطان وبينه على أن يجبر بعض المنكسر من خاص ماله مما استفضله طول وزارته من مرافق أعماله، فأبى أن ينزل عن درهم إلا بعزله وحبسه أنّى شاء من قلاعه، صنيع المتبرّم بالعمل، المتنغّص بالأمل، المستسلم للبليّة، المتحكك بالمنيّة.

واختار عند ذلك السلطان الدهقان أبا إسحاق محمد بن الحسين وهو إذ ذاك رئيس بلخ لصحابة الديوان، واستنظاف البقايا على العمال والسكان.

وأنهضه إليها سنة إحدى وأربعمائة. فانحدر إلى هراة، وجبى من الأموال ما درت أخلافه، ولانت على المسّ أعطافه. ولم يلبث إلا يسيرا حتى حمل حملا كثيرا، والوزير أبو العباس بعد في صدر الوزارة، والشيخ الجليل أبو القاسم يسعى بينه وبين السلطان على سبيل السفارة، يروم انتصاحه إياه كي ينسدّ به مكانه، ويستند إلى عرض الاستقامة شأنه، وهو يأبى سوى اللجاج في إلقاء القول عن حدة المزاج، حكما من الله تعالى لم يسع ردّه، وقضاء سابقا أعيا العالمين صدّه. وما زالت هذه حاله لزوما للصدر، على ما

به من ضعة القدر، إلى أن ركب بنفسه إلى قلعة غزنة مستروحا بزعمه إلى الاعتقال عما تولاه، ومتسمحا بجملة ما حواه واقتناه، فلم يسمع بمثله رجلا يشتري الحبس اختيارا، ويستقبل صرف الزمان بدارا. وغاظ السلطان ما أتاه، فاستبذله الخطّ بغرامة ما جناه على أمواله ورعاياه، فبذل خطه بمائة ألف دينار. ثم لم يزل يستدّر إلى أن عرض حال الفاقة، وعدم الطاقة. ثم استحلفه السلطان بحياة رأسه على ظاهر إفلاسه، وعلى إغلاق دمه إن وجد له على الطلب مال مفرقا ومجمعا، ومدفونا ومستودعا. وبقي على جملته ينتابه أولاده معفى عن الإرهاق والتعنيف، مصونا عن التحامل والتكليف، إلى أن ظهر على ما ذكر له مال عند بعض التجار ببلخ وديعة فأخذوه، وأمر بوضع الدهق عليه لا ستصفائه، واستخراج ما وقاه بنفسه وذمائه، وما بقي من رمق جاهه ومائه.

واتفقت للسلطان غزوة حالت بينه وبين مشاهدة حاله، واستبراء ما يصدق أو يكذب من مقاله، والدهق يستمر به على الدوام، وينال منه يوما بيوم، حتى أتاه أجله، وحاق به ما كان يستعجله، وذلك في سنة أربع وأربعمائة.

ولما عاد السلطان وراءه، ساءه ما سمع فيه، وهيهات أين من المساءة روح مطموسة، ونفس بين أطباق الثرى مرموسة؟! كذلك من آثر المخلوق على الخالق، ولم يعتبر بالماضين في الزمن السابق.

وقد كان أدرك له ولد في صدر وزارته يعرف بأبي القاسم محمد بن الفضل، فبرع على ميعة الشباب، في وجوه الفضائل والآداب، حتى استطار ذكره، واستطال قدره، واستفاض نظمه ونثره. فمن شعره قوله في أبيه من قصيدة:

لقد أربى أبو العباس جودا ... على جود الربيع لمعتفيه
ففي إحدى يديه ممات قوم ... وفي أخرى الحياة لمرتجيه
لقد خضعت لك الدنيا ودانت ... فهل مرقى سواه فترتقيه
و أقبل نحوك الإقبال حتى ... غدا بصرا وأنت النور فيه
فنورز ألف نيروز سعيدا ... رفيع الجد في عيش رفيه

وله أحجية:

وزنجية قادت إلى القوم بضة ... لينكحها من كان يعشقها قدما

فقام إليها واحد بعد واحد ولم نر ذما فعلهم لا ولا إثما

وأدركته حرفة الأدب.

واختطفته يد المنية أنضر ما كان عودا، وأثبته عمودا، وأبهره سعودا، وأحمده قياما وقعودا.

وحكى لي بعض أصحابه أنه أصبح ذات يوم يروي بيتين تلقنهما في المنام وهما:

أرى الدنيا وزخرفها ككأس تدور على أناس من أناس

فلا تبقي على أحد كمالا يدوم بقاؤها في كف حاس

فتطير منه. ولما قضى نحبه، زاد أبو الحسن المؤملي الكاتب فيه أبياتا وهي:

أبعد محمد بن الفضل أرجو أمانا لي من الدهر العماس

أساس الفضل كان به فأودى وأبقى الفضل منهدم الأساس

فتى في نثره والنظم أربى على ابن ثوابة وأبي نواس

رأى في النوم معجزة جرير يقصر دونها وأبو فراس

سأحفظ عهده مادمت حيا وحفظ العهد من كرم النحاس

ورثاه بعض أهل العصر بقوله:

يا عين جودي بدم ساجم على الفتى الحرّ أبي القاسم

قد كاد أن يهدمني فقده لو لا التسلي بأبي القاسم

وسدّ الله مكان الماضيين بأبي الحسن علي بن الفضل المعروف بالحجاج بفضل ساطع نوره، وعلم جامع سوره، وحلم ثابت طوره، وجود موكل بإنشار آمال الأحرار صوره، فتي السن في حصافة الكهول، جبان الرأي في شجاعة السيول، أدهم البأس في غرّة السّجاحة، فدم الحياء في ذلق الفصاحة. ندب لأعمال الجوزجان فدرّت على إبساس ولايته، ونقل إلى أعمال نسا فضاقت عن فضفاض كفايته، يصون الأعمال صيانة عرضه عما يصديه، ويحيي الآمال إحياءه شرف أبيه، ويميت بدع الرسوم إماتته ذكر أياديه[1]: [البسيط]

---

(١) لابن الرومي انظر: ديوانه ٢٤٢٤، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي ١٤٦/٢.

ابن الرومي: (٢٢١ - ٢٨٣ هـ / ٨٣٦ - ٨٩٦ م): هو علي بن العباس بن جريج أو جورجيس، الرومي. شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس. ولد

تسمو الرجال بآباء وآونة تسمو الرجال بأبناء وتزدان
كم من أب قد علا بابن له شرف كما علا برسول الله عدنان

=
ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله -وزير المعتضد- وكان ابن الرومي قد هجاه.

قال المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلّت فائدته من قول الشعر وتحاماه الرؤساء وكان سبباً لوفاته.

وقال أيضاً: وأخطأ محمد بن داود فيما رواه لمثقال (الوسطي) من أشعار ابن الرومي التي ليس في طاقة مثقال ولا أحد من شعراء زمانه أن يقول مثلها إلا ابن الرومي.

obeikandl.com

ذكر وزارة الشيخ الجليل أبي القاسم أحمد بن الحسن

قد كان الشيخ الجليل أبو القاسم يلي ديوان الرسائل للسلطان أيام سالاريته بخراسان. وهو الكريم نسبا، العظيم حسبا، العريق مجدا وحرية، الوثيق رأيا وروية. تنادي عليه أقطار الأرض بفصاحة القلم، وسجاحة الشيم، ونفاسة الهمم، واحتقار الدنيا والدرهم. ودرّجه وفاؤه للسلطان على تصاريف الأحوال به إلى أن ولّاه عرض عساكره في أقطار مملكته، وزاده أعمال بست والرّخّج وما والاهما بأموالها وارتفاعاتها علاوة على ما ولاه، فقام بجميع ما تولاه، قيام من وفّقه الله. وحدا عليه جوده بني الآمال من أطراف البلاد، فوسعهم جداه، وغمرهم نداه، وكتبت لهم أمانا من الفقر يداه. فأما مروءته فما يؤمن بالمعجزة الصادقة الصادعة منها إلا من شاهدها عيانا واستفتى عدول إحساسه عليها سيرًا وامتحانًا.

وكان الوزير أبو العباس لا يصدر إلا عن رأيه، ولا يحتشم غيره في تصاريف عزماته وأنحائه، لفخامة شأنه، ومكانته المعمورة من سلطانه. ووساطته بينهما في معظم ما يزجيه ويرجيه، ويحييه ويفنيه، ويبقيه ويرديه، ويذره ويأتيه، ويقدره ويفريه.

ولما وهت عليه قوة أمره، وانكسرت سورة خمره، واتفق للسلطان أن يرحل نحو ناردين في الغزوة التي تقدم ذكرها، استخلف الشيخ الوزير أبا القاسم على مهمات بابه، وإمداد صاحب الديوان فيما يليه ويجبيه بصواب رأيه، وبعثه على مواصلة الحمول عن فرط جدّه وغنائه. فهو متّسم بالوزارة غير متسمّ بها، إلى أن اتفق للسلطان استدعاء صاحب الديوان في عمال خراسان لرفع الحسبانات، وتقرير المعاملات. فنهض إليه كل رئيس ومرؤوس، وشريف ومشروف، ومستعمل ومعزول، وسمين ومهزول، قد اتخذوا الطّعم والغمض حراما، ووضعوا الأرواح على الراح توكلاً واستسلامًا.

ووافق وصولهم ركضة عزمها السلطان إلى الهند، فسبّب عليهم لأذناب أهل عسكره بما رآه ووكلهم باستخراجه في مدة يومين لإهمام الركض، وضيق رقعة الوقت، فعصبوا عصب السلم، وسلخوا سلخ الغنم، وأقيموا على جمرة الضرم، ونكسوا على الهام والقمم، حتى اعتصر ذلك منهم عن تضاعيف اللحم والدم. وعندها صبّ السلطان على الشيخ الجليل خلعة الوزارة، وفوّض إليه مهمات الإمارة، وأمره بمحاسبات

العمال، ومطالبتهم بما صار في ذممهم من الأموال، محكما في الحل والعقد، مخيرا بين الأخذ والردّ.

وسار السلطان نحو مقصده، وأقبل الشيخ الجليل على ما جعل بصدده، فهذّب الأمور، ونظم المنثور، ووظّف الأموال، وصرف العمال، وردّ صاحب الديوان أبا إسحاق على جملته إلى خراسان مستوفيا عليهم ما يلزمهم من حاصل وباق، وعتيق وناض. وقعد في الدّست كالبدر المنير، والسيف الشهير، منفردا بالتدبير، محتشدا لروعة الملك وهيبة السرير. فلما اتفق عود السلطان إلى قرار غزنة، وشاهد الأمور في كنف وزارته منظومة العقود، مضبوطة الحدود، والأموال وافرة الريوع، حافلة الضروع، رسم له بأن ينحدر إلى خراسان، مستنظفا ما وهى أو وهن صاحب الديوان في جبايته واستيفائه، وقصر أو قصّر عن تبرّضه وامترائه. فانحدر إلى هراة، وهيبته تأخذ النفوس بمخنقها، وتختلج القلوب عن معلقها. ويكاد ينطق له كل مال مخزون، ويلفظ إليه كل درهم مدفون، فجمع عن تسمح النفوس بما جمعته، واستكراهها عما منعته، مالا لم يسمع بمثله محمولا من خراسان أذهابا وأوراقا، وقصبا رقاقا، وغلمانا رشاقا، وأفراسا عتاقا. وتلاقت الرفائع على صاحب الديوان بما ناله من صنوف المنافع، ووجوه المطامع. فسامه السلطان تصحيحها تسبيبا، وحملا إلى بيت المال قريبا. فاعتزل العمل، ونزل عن كل ما حصّل، وفزع من بعد إلى خاص أملاكه وضياعه، ومواشيه وكراعه، وتجمّله وأثاثه، حتى حلي إناثه، فحلّ ما اعتقده منها على مال مصادرته، وما جمع عليه من بقايا عمله.

وكان الوزير أبو العباس قليل البضاعة في الصناعة، لم يغن بها في سالف الأيام، ولم يرض بنانه بخدمة الأقلام، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية، حتى كسدت سوق البيان، وبارت بضاعة الإجادة والإحسان، واستوت درجات العجزة والكفاة، والتقى الفاضل والمفضول على خطي الموازاة. فلما سعدت الوزارة بالشيخ الجليل أبي القاسم أسعد الله به جدود الأفاضل، وورّد بمكانه خدود الفضائل، ورفع ألوية الكتّاب، وعمر أفنية الآداب، فجزم على أوشحة ديوانه أن يتنكّبوا الفارسية إلا عن ضرورة من جهل من يكتب إليه، وعجزه عن فهم ما يتعرب به عليه، وطارت توقيعاته

في البلاد بالعربية ولا شوارد الأمثال، وأبيات المعاني من القصائد الطوال، ففي كل ناد نداء بألحانها، وفي كل مشهد شهادة باستحسانها.

فأما الشعر فقد نشر عليه ملحوده، وسعد به جدوده، وفتق بالعذب الرواء صيخوده، فأربابه كالعنادل تغريدا بمناقبه، والقماري تسجيعا على الضّرب الماذي من ضرائبه، وهو بعد له في الناس غياث ورحمة، وبفضله لأهل الفضل ثمال وعصمة. وانفرد بتدبير البلاد والعباد بناء على الأساس، وحلبا على الإبساس، وإخافة على الإيمان، ومكافأة بالإساءة والإحسان. وأسوا لجراح القلوب بمراهم الترغيب، وإنكارا بمعروف العمارة سابق التخريب، واشارة على السلطان في أمور مملكته بما يفيده عاجل التوفير، وآجل الثواب الغزير، لا جرم أنه استتبّت الأمور بغنائه، وانسدّت الثغور على آرائه، وكذلك من كان على العلم إيراده وإصداره، وعلى البصيرة إرجاؤه وبداره.

obeikandl.com

ذكر قابوس بن وشمكير الأمير شمس المعالي وما ختم به أجله وتنصيب ولده الأمير فلك المعالي أبي منصور منوجهر منصبه ووراثته مملكته واتّشاج الوصلة بينه وبين السلطان يمين الدولة وأمين الملة

قد كان ذلك الأمير على ما خصّ به من المناقب، والرأي البصير بالعواقب، والمجد المنيف على النجم الثاقب، مرّ السياسة، لا يستاغ كأسه، ولا يؤمن بحال سطوته وبأسه. يقابل زلة القدم بإراقة الدم، ولا يعرف في أدنى درجات العثار، وإن لم يقصد إليه مراد، ولم يشترك في كسبه اعتقاد، غير حر الانتقام بحد الحسام، والتفليق عن مركّب الهام، لا يذكر العفو عند الغضب، ولا يعرف معنى السوط والخشب، ولا يرى الحبس إلا ما بين الصفائح والترب. وهلك على خشونة هذا المش، وصعوبة هذا البطش، فئام من حاشيته لو كان استبقاهم على خفة أجرامهم، لكان أشبه بالجلالة، وأليق بالأصالة والعدالة.

فما زالت هذه حاله حتى استوحشت النفوس منه، وانقلبت القلوب عنه، وشحنت الصدور عليه، ومالت عنه الأهواء المائلة إليه، إذ كان أحد لا يأمن العثرة، ولا يملك العصمة. ومتى كان العقاب ملحقا بالخطأ اليسير صارت النفوس مجتاحة، والأرواح مستباحة، والمرء من البشر لا من ورق الشجر، فهو إذا مات فقد فات، وليس مما يعود بعد ما عري العود.

واتفق أن حاجبا له كان يعرف بحاجب نعيم- وهو أحد الكراكلة في حدود جرجان- عديم الغائلة والعادية، سليم الناحية من بين أفناء الحاشية، وكان اعتمده لضبط استراباذ وسياستها، رفع إليه أنه طمع في بعض رعاياها في منال، أو مال إلى الانتفاع منه بمال، فأمر بقتله وتعليقه عن خيط رقبته وهو يستغيث مفصحا ببراءة ساحته، ونقاء جيبه وراحته، وقصور ما سعي به عليه لو صحّ إسناده عن إفاتة نفسه وإراقة دمه. فزاد قتله في إيغار الصدور، وإضغان القلوب. وتآمر عند ذلك أعيان العسكر على خلعه، ونزع الأيدي عن طاعته، وكفاية النفوس شغلها بثقل وطأته وخشونة سياسته.

و وافق هذا التدبير منهم غيبته عن جرجان إلى المعسكر بچناشك، استبدالا بهوائها عن لفح الحرور عند طلوع الشعرى العبور، فعمي عليه وجه الصورة، وشذ عنه علم تلك المشورة، فلم يرعه ذات ليلة غير زحام العسكر بباب القلعة التي اعتصر بها،

وانتهابهم أمواله وأفراسه وبغاله، ومرامهم قسره واستنزاله، فهرّ في وجوههم من كانوا نزولا بفنائه، محامين من ورائه، حتى انكشفوا عنه صاغرين، وولّوا على أعقابهم داخرين. ومالوا إلى جرجان فتملكوها عليه معلنين شعار العصيان، لا بسين غيار الكفران.

وبعثوا إلى الأمير أبي منصور منوچهر بن قابوس وهو بطبرستان، يستحثونه على الورود لعقد البيعة له، وزفاف الملك إليه؛ فطار إليهم بقوادم العقاب، استعظاما للحادث بأبيه، وإكبارا لما نفذ من المكيدة فيه، وطمعا في تدارك الخطب وتلافيه. فلما دنا منهم مضربه توافقوا على طاعته إن خلع أباه، وابتزازه رداء الملك إن أباه. فلم يجد في عاجل الحال غير المداراة، ضبطا لما انتشر، ورشّا على ما استعر، وصونا لستر الحشمة من الانخراق، وإبقاء على سكر الفساد من الانبثاق، وإشفاقا على البيت من الضياع، وعلى الملك من التخطف والانتزاع.

وقد كان شمس المعالي لما سمع بنبأ القوم واجتماع كلمتهم على الخلع، عطف بمن وما كان معه من رجال ومال إلى ناحية بسطام، ناظرا ما يسفر عنه عاقبة التحزّب، وينتهي إليه نائرة التغلّب والتوثّب. فلما تسامعوا بنبئه حملوا الأمير منوچهر على قصده، وإزعاجه عن مكانه أو ردّه؛ فسار معهم إليه مضطرا، ودافعا بالشرّ شرا، كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أنيخ على صخرة استناخ. فلما وصل إلى أبيه، أذن له دون من يليه من أتباعه وحواشيه، إذ قام دونه من خاصته، رجال يرون الموت شهدا دون خذلانه، والروح وقفا على شكر إحسانه. فلما وصل إليه كفر طاعة وخضوعا، وأسال أردية الشؤون دموعا. وتشاكيا صورة الحادث، وتذاكرا حقّي المورّث والوارث، وغرض الأمير منوچهر أن يكون حجابا بينه وبين أعاديه، وإن ذهبت نفسه فيه.

ورأى شمس المعالي قابوس أن العارض قصارى أمره، وختام عمره، وأنه أحق بوراثة ملكه، وولاية الأمر من بعده، وسلّم خاتم الملك إليه من يده، واستوصاه الخير به مادام في فسحة من أمده. وتواضعا على أن ينتقل هو إلى قلعة چناشك متفرغا للعبادة إلى أن يأتيه يقينه، فيسلم له نفسه ودينه، وأن يتفرد الأمير منوچهر بن قابوس بتقرير الملك فريا وتقديرا، وتقديما وتأخيرا. وقدمت إليه عمّارية على هذه الجملة، فانتقل إلى القلعة المذكورة مع من رضيه لخدمته، ومعونته على ضروب مصلحته.

وعطف الأمير منوچهر إلى جرجان فولي الصدر، وضبط الأمر، وأخذ يداري القوم ترغيبا وتطميعا، ويمنّيهم الإحسان جميعا، وهم على جملة النفور، خيفة الثبور، ما دام شمس المعالي في فسحة البقاء، وزمرة الأحياء. وما زالوا في الاحتيال عليه، حتى فرغوا من أمره، وسلموا كما زعموا من عادية شرّه. ولم يرضوا به وهو في صوان الأموات، حتى كشفوا عن محياه رداء رداه؛ فطابوا نفوسا حين عدموا شمس المعالي قابوسا، وواروه في مقبرة كان ابتناها لنفسه بظاهر جرجان، على سمت خراسان. وغدا الناس في معناه كما قال مهلهل[١]: [الكامل]

نبئــتُ أن النــار بعــدك أوقِــدَتْ   واستبّ بعدك يا كليب المجلس

وتفاوضوا في أمر كل عظيمة   لو كنت شاهدهم بها لم ينبسوا

وعقد الأمير منوچهر المأتم ثلاثة أيام على رسم الجيل في حسر الرؤوس، وضرب النفوس، ورفض المنام، وهجر الطعام. ولما قضى أيام المعزى، نسي المقبور، واستؤنف السرور[٢]: [الطويل]

---

(١) انظر: الديوان ١/ ٢١، وأمالي القالي ١/ ٩٥، وسمط اللآلي ١/ ٢٩٨، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٨٣.

المهلهل بن ربيعة: (٩٤ ق. هـ / ٥٣١ م): هو عدي بن ربيعة بن مرّة بن هبيرة من بني جشم، من تغلب، أبو ليلى، المهلهل. من أبطال العرب في الجاهلية من أهل نجد. وهو خال امرئ القيس الشاعر. قيل: لقب مهلهلا، لأنه أول من هلهل نسج الشعر، أي رققه. وكان من أصبح الناس وجهاً ومن أفصحهم لساناً. عكف في صباه على اللهو والتشبيب بالنساء، فسماه أخوه كليب (زير النساء) أي جليسهن.

ولما قتل جساس بن مرة كليباً ثار المهلهل فانقطع عن الشراب واللهو، وآلى أن يثأر لأخيه، فكانت وقائع بكر وتغلب، التي دامت أربعين سنة، وكانت للمهلهل فيها العجائب والأخبار الكثيرة. أما شعره فعالي الطبقة.

(٢) البيت للحارث بن مضاض الجرهمي كما في كتاب التيجان: (٢١٣). والإكليل: (٨/ ٢٣٩)، والحور العين: (٦٦) ومعجم ياقوت (الحجون): (٢/ ٢٢٥)، واللسان (حجن).

الحارث بن مضاض بن عبد المسيح الجرهمي: من ملوك الجاهلية، من قحطان. كانت إقامته في الحجاز، تابعا لليمن.

وفي أيامه نشطت حركة بني إسرائيل وزحفوا يريدون مكة، من الشمال، فقاتلهم الحارث فهزمهم واستولى على (تابوت) من الكتب كانوا يحملونه، وفيه ما انتحلوه على الزبور.

وهو الذي يقال إنه خرج من بلاده يجول في الارض، زمنا طويلا، وضربت الامثال باغترابه.

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحَجُونِ إِلَى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

ولما سمع القادر بالله أمير المؤمنين بخبر شمس المعالي، واستئثار قضاء الله به، خاطب الأمير منوچهر معزّيا ومسلّيا، ولقّبه بـ(فلك المعالي) مشرّفا ومحلّيا.

وعزم الله له على الصواب في اختياره، والرشد في إيثاره، ففزع إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة معتصمًا بحبله، معتصرا بظله، مستظهرًا بطاعته، مستبصرًا في مشايعته، مستغشيًا رداء عنايته، متلافيًا وهن المصاب بقوة إشباله ورعايته. وأنهض عدة من ثقات بابه بمبارّ موفورة، ونفائس مذخورة، ورسائل على صدق الإخلاص وصفو الإمحاص مقصورة؛ فصادف ما رجاه رغبة في موالاته، وحرصا على تقمّن مرضاته.

وتردّد السفراء بينهما على ربابة هذه الحال، وتوكيد عقدة الوصال.

واحتكم السلطان عليه في إقامة الخطبة له على منابر ولاياته، امتحانا لمصدوقة عقده في موالاته. وأنهض إليه أبا محمد الحسن بن مهران أحد ثقاته بما رأى أصحابه من نفائس خلعه وكراماته، فصادف منه قريبا مجيبا، وسميعا مطيعا، وأمر بإقامة الدعوة باسمه على منابر جرجان وطبرستان وقومس ودامغان، والتزم في السنة خمسين ألف دينار إتاوة، وعلى عكمي الطاعة والإخلاص علاوة.

واستدعى السلطان على تفيئة ذلك، وقد عزم على غزوة ناردين إنجاد حشمه بطائفة من الجيل والديلم يحسنون حروب المضائق، ويغنون غناء الكماة البطارق، فسرّب إليه ألفي رجل من خلّص الجيليين إن راموا الوعور فوعول، أو قصدوا السهول فسيول. وقد أمر بإزاحة عللهم في أعطياتهم، ونصب لهم من يقيم أود حاجاتهم، ويطلق لهم مدة الحاجة إلى غنائهم واجب أرزاقهم واستحقاقاتهم. ولما استحق على

=

ويقول المسعودي: إنه أول من تولى أمر البيت بمكة من بني جرهم.

ونسب إليه ابن جبير والمسعودي البيتين اللذين أولهما: (كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر) والبيتان هما ابتداء قصيدة، نسبها إليه ابن الحائك الهمداني أيضا، في (الاكليل) وأورد ١٢ بيتا منها، لعل بعضها مصنوع، وقال: وهي الآن - أي في عصره - مكتوبة في مقام إبراهيم عليه السلام.

انظر ترجمته في: الأعلام ١٥٧/٢، والتيجان ١٧٨ ومروج الذهب، طبعة باريس ٣/ ١٠٠ - ١٠٢ ورحلة ابن جبير ١١٠ طبعة ليدن.

السلطان بآثاره في القربة مزيد الرتبة، وبمساعيه في الطاعة قضاء الحاجة، أنهض رئيس جرجان أبا سعد الجولكي المقدم فضلا وأدبا، المحتشم حسبا ونسبا لا قتضاء مزيد الحال بوصلة تقوم الكفاة بخطبتها عنه، والطاعة باستيجابها له، فنهض و خفارة الأدب تهديه، وكفالة الرفق فيما يذره ويأتيه. ولم يزل يأتي الأمر من بابه، ويستطلع المراد من حجابه، حتى أسمحت قرونة السلطان لما استدعاه، وأوجب الإسعاف بما توخّاه.

ولما انكفأ الفاضل أبو سعد وراءه بصورة الحال في الإيجاب، وما صادفه من هزة المجد للإطلاب، جشمه الأمير فلك المعالي معاودة الحضرة مع القاضي بجرجان وهو شيخ العلم وراوية الحديث، ورضيع أخلاف التدرّب والتجرّب لتنجز النجاح، وتأريب عقدة النكاح، فنهضا إلى حضرة السلطان مقيمين رسم الخدمة، وخاطبين ضم السّدى إلى اللحمة، فرأى السلطان تحقيق مبذول العدة، وعصيان سلطان النفس طاعة لرب العزة. وفلذ للأمير فلك المعالي خلبا من كبده، وسمح له بزهرة الأرض من نجوم ولده، وأي نجم كان في فلك المعالي مداره لم تبعد داره، أنّى ومدار النجوم الأفلاك؟! وأزواج الملكات الأملاك؟!

وجرى من الاستبشار باتحاد النفوس والديار، وصبّ النثار، وصوب المبارّ كالغيوث الغزار، ما أرّخ به كتاب الدهر، ووسم بذكره سالفة العصر.

وعاد الرسولان بدرك النجح الموقوت، ولا السعدان يقترنان في الحوت، وعندها تكلّف الأمير فلك المعالي- حرمة للقربى، ونحلة بين يدي النجوى- مالا تبيّن من رآه على اختلاف أصنافه، وأغراب نقوشه وأفوافه أن له همة إلى قمة الجوزاء مرفوعة، ونية على صدق الولاء مطبوعة. ولم يبق أحد من أركان الدولة وحواشيها، والراتعين حول مراعيها، لم يضرب بسهم من سهام اللطف، ولم يشترك في البر المعقود بالشرف، لا جرم إن السلطان رعى حرمة قرباه، وجزاه عمّا سمحت به يمناه، وأفرد كلا من قواد جيوشه وأفراد رجاله بخلع علّمت أجانب الملوك كيف شريطة الجود، والسماحة بالموجود، وتقصّي المجد بعفو الرأي دون المجهود، فأمّا ما صحب درة الصدف، وياقوتة الشرف، فمال طال عهد الدهر بمثله مجموعا في مكان، محمولا من خراسان. ولا غرو فالشمس تغني البدر نورا، والبحر يدع الخليج مسجورا.

وقد كان الأمير فلك المعالي بعد أن استتبّ له أمره، واشتدّ بمظاهرة السلطان ظهره، دمر على أعيان عسكره المشتركين في دم أبيه، فصدع ذات بينهم بوجوه الحيل وأنواع العلل، حتى أباد خضراءهم، وسقى ظماء الأرض دماءهم.

وأحس خركاش - وهو القريب العاق، والنسيب المشاق- بالداهية الدهياء، فانسلّ تائها بين سمع الأرض وبصرها، تأباه الرعان والأباطح، وتلفظه القيعان والصحاصح، فمهما مسّ جانب القرار، طلبته هامة الماضي بالثأر؛ فهام على وجهه ولا فقيد ثقيف، بين تشريق وتغريب، وتصعيد وتصويب.

وكان أحد من أثار ذلك الشرّ على شمس المعالي على ما تشاهدت به الأخبار أبو القاسم الجعدي وكان صاحب جيشه، فانحدر إلى رأس الحد كباز على قفّاز يرى كل صيحة عليه، وكل حشيش سهم أقواس بين جنبيه. فأمهله فلك المعالي زمانا، حتى ظن أن له دون شؤون الآخرين شأنا، ثم اطّباه بتطميعه وترغيبه، حتى أعلقه حبالة الاقتناص، وآيسه من الطمع في الخلاص، وأن لله حكما في أمور عباده معلقا بآماد معلومة، وغايات محدودة، فليس قبلها مستقدم لما تأجّل، ولا بعدها مستأجل لما تعجّل. فاحتال أبو القاسم حتى انسلّ هاربا، واعتسف البيد جانبا ثم جانبا. ومازال على حاله واحتياله، حتى ورد نيسابور يظن- وبَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ - أن انقطاعه إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة- على نغل دواخله، وارتهانه بسالف فعله وقابله، مع ما تمهد في ذات البين من عقود، وتأكد من عهود، واشترك فيه من طارف ومتلود- يحلّ عنه عقال آثامه، ويكفّ عنه ما حقّ عليه من بأس الله وانتقامه، كلا إن سوء الفعل خذول، والقاتل لا محالة مقتول. وشرّ المحن ما أومض بالخلاص قبل إبّانه، واستيفاء مدة النضج على بحرانه، أنه ليوهم الفكاك ثم يعقب الهلاك، كالهرة تطمع الفأرة في الخلاص، حتى إذا كانت منها على غلوة، لحقتها بعدوة. لا جرم إن السلطان لما أنهي إليه صورة حاله، ومن قبل ما سمع بسوء فعاله، أمر بردّه وراءه في عقاله. ولقد أحسن ابن الرومي في مقاله:

الخيـــر مصـــنوع بصـــاحبه فمتـــى فعلـــت الخيـــر أعقبكـــا
والشـــر مفعـــول بفاعلـــه فمتـــى فعلـــت الشـــر أعطبكـــا

ذكر دارا بن شمس المعالي قابوس بن وشمكير

قد كان دارا بن قابوس بعد استئمانه من جانب أبي علي محمد بن محمد بن سيمجور إلى الأمير نوح بن منصور الرضا، مقيمًا على خدمته، سهيما لعيبته في نعمته وفي جملته، إلى أن فتح الله على أبيه جرجان وطبرستان، فانحاز إليه مستغنيا بخدمته عن خدمة غيره، وصادف من الإشبال والإقبال ما اقتضاه حكم الأبوّة والبنوّة، ثم حدره شمس المعالي إلى طبرستان فأقام بها سدّا دون مخالفيه، وذماما على أوليائه ومعامليه.

و استنهضه منها على قريفة ألقيت إليه، فأتاه وهو باستراباذ يريه صحة أديمه، واستواء حديثه بقديمه. فأحسن استقباله وإنزاله، ثم دعاه في وقت ارتاب به، فركب على قصد مجلسه، ثم عطف عطفه الليث الخادر نحو خراسان، بين غياض تشكوا الأراقم بينها ضيق المجال والمضطرب، وصعوبة المنساب والمنسرب.

واستصحب من رافقه ووافقه من غلمانه وأهل الثقة به، إلى أن عرف شمس المعالي خبره، واستركب لاقتناصه عسكره، بعد ما قد طار به الركض. وحالت دون مناله الأرض. ولما شافه حدّ خراسان، رفرفت الأمنة عليه بجناحها، إلى أن ورد حضرة السلطان يمين الدولة وأمين الملة، فقبله أحسن قبول، ولقاه حسن مقول ومفعول. ومازال يرفع منه تمويلا وتخويلا، وتفخيما وتبجيلا، حتى اغترّه فضل الانبساط وعزّ الانتساب بما هدّ قربته، وهدم رتبته، واستوحش من عارض الإعراض، وأشفق من رهق التغير والانقباض، فلاذ بظلّ الليل هربا، وبات يطوي الأرض تقريبا وخببا. وأمر السلطان بطلبه، واتّباعه في وجوه مهربه، فألحق حيث قامت الخيول تعبا، ولم تجد السيوف عليه مضربا. ففرّ على وجهه ملتجئا إلى الشار المعروف بالشاه، لحال بينهما في الصفاء معمورة، وأصول ود بالوفاء مأبورة. فلما استقر به المكان، وخبر حاله السلطان، كتب إليه السلطان فاستردّه وخوّفه أن يأتي عليه ما بعده، فاضطر إلى ردّه وإسلامه عن يده.

وبقي في الحبس مدة، يكابد بؤسا وشدة، إلى أن وجد فرصة الانفصال، عن رقّ العقال، ففارق معتقله من حيث لم يطمع فيه أحد، ولم يكن ليغني عنه لو لا المقدور رأي ولا جلد. وأبت عليه لجاجة المحنة أن يتم خلاصه، ويستتب مناصه، فأعثرت عليه حتى أعيد في وثاقه، وزيد في إرهاقه، إلى أن شرح الله صدر السلطان لإطلاقه، فأنشأه

نشأة ثانية، وأنبت ريشه قادمة وخافية، وأعاد حاله بالإحسان حالية، ويده على أيدي الأضراب عالية. ووجّهه لولاية جرجان وطبرستان معضودا بأبي الحارث أرسلان الجاذب، وذوي النجدة من كماة الرجال، وكفاة الأبطال. لو لا أن الأمير فلك المعالي منوچهر سبق تمام الرأي بإظهار الطاعة، وعرض ما وراء الوسع والطاقة، ولما حالت حرمة التقرب دون الاختيار عليه، واستردّه السلطان إلى حضرته فجرى مجرى أركان دولته، وأخدان العشرة لا يفارقه في حفلة، ولا يزايله في خلوة، ولا يقعد عنه في وقت ركوب، ولا ينفرد دونه بدور كوز ولا كوب، إلى أن ورد الأمير أبو الفوارس بن بهاء الدولة حضرة السلطان منزعجه عن كرمان، لقصد عسكر أخيه إياه مستظهرا به على معاودة مملكته، وارتجاع بيته ونعمته، فجمعهم ليلة مجلس دارت فيه الكؤوس، وطابت النفوس، وجرى حديث السلف والخلف، وإعراق من أعرق منهم في الشرف. فنطق دارا بما لو سكت عنه لكان أشبه بحق الخدمة، وحكم الحشمة، ووقت الاجتماع على رضاع العشرة. وحمله رمز الإنكار عليه على قصد المرادة، وركوب المحاقّة، حتى تأدى به الأمر إلى إزعاجه عن مكانه، وإشجائه بغصّة المدلّ على سلطانه. وأمر به في غد، فردّ في العقال، وحمل إلى بعض القلاع. وقبض على ضياعه؛ فأجريت مجرى الحوزيات، تستغل أسوة سائرها، إلى أن سأل الشيخ الوزير في بابه، فأمر بردّها عليه، معونة له على مصلحة حاله، ومؤونة اعتقاله، وذلك في المحرم سنة تسع وأربعمائة.

ذكر مجد الدولة أبي طالب بن فخر الدولة

قد كان فخر الدولة كتب إلى حسام الدولة أبي العباس تاش وهو بجرجان منحدره إليها عن خراسان على لسان الصاحب يبشّره بولادته، وإجراء الله إياه في الصنع به على كريم عادته. وكان مما كتب إليه:

«و قد رزقني الله ولدا كنيته أبا طالب طلبا للسلامة في مدته، وسمّيته رستم لأنه من أسماء نصابه وأرومته».

فلما اخترمته المنيّة، بايع الناس مجد الدولة، إلا أن التي قامت عنه كانت أختا للاصبهبذ بفرّيم وسائر مملكة الجيل. وهي في منعة من أهلها، وعزة من جانب أرضها، فتملّكت عليه الديلم، واستأثرت بالأمر والنهي، والحل والعقد، وجرت بينه وبينها مكاوحات تأدت بها إلى استنهاض بدر بن حسنويه إليه، وامتلاك الريّ عليه. وجرت بينهم مناوشات أفضت بالديلم أولا، وبأهل الريّ ثانيا إلى بؤس وفاقة، ودماء مهراقة، وفتن ليس فيها قدر فواق من إفاقة. وعن قريب يعود سقب الخلاف جذعا، وحبل الصلاح منقطعا؛ فتنتج عنه إبادة الرجال، واستباحة الأموال، وشرود الصلحاء في البلاد، وضراوة السفهاء بالإفساد.

ولما غرض مجد الدولة بالأمر، وبما ينقدح على الدّوم من شرر الشرّ، آثر البرّ في الاعتزال عن سمة الإمارة. وحمله الاعتراف لها بالطاعة على العقوق المفضي بمن تحت ولايته ورعايته إلى خطة الاحتناك، المشفي بهم على خطة الاجتياح والاستهلاك، فلزم البيت منفردا بالكتب والدفاتر، ومبيضا وجه الفضل بسواد المحابر.

وانفرد أخوه شمس الدولة بولاية همذان وقرميسين وما والاهما إلى حدود بغداد. وورث بدر بن حسنويه أموالا عظيمة طالما حفظتها صدور القلاع مكتومة، وخنقتها خيوط الأكياس مختومة، ولم يلبث إلا قليلا حتى استغرقتها صلات الرجال، واستنفدتها حقوق الآمال، شيمة له في التحقق بالفضل، والتخرق في البذل.

وقد كان ابن فولاذ فخم في دولة آل بويه أمره، وارتفع قدره، وانتشر صيته وذكره. والتفّت عليه صناديد الديلم، ومشاهير الأكراد والعرب، فسأل مجد الدولة والكافلة بالتدبير أن ينزلا له عن قزوين طعمة له ولمن معه، ليتفرد بولايتها وجبايتها، ركنا من أركان دولتهما. وظهرا من ظهور حوزتهما، يذبّ عنهما بسيفه وسنانه متى دهاهما

خطب، أو دخن على نارهما حطب رطب. فضنّا عليه بها لضيق رقعة الملك، وبكوء درة الدّخل. وأدليا إليه بظاهر العذر؛ فقصد أطراف الريّ على جملة العصيان، يفسد ويغير، ويقطع دون أهلها سبيل من يمير. وملك عليهما ما يلي جانبه من قرى وضياع، وريع وارتفاع، إلى أن استعانا بالاصبهبذ المقيم بفرّيم؛ فأتاهما في رجراجة فخمة من الجيلية، أولي البأس والحمية، فناوشوه القراع، وصدقوه المصاع. وجرت بينهما في دفعات ملاحم استلحمت كثيرا من الفريقين. وأصاب ابن فولاذ في ساقه نشّابة أثخنته، فولى فيمن معه إلى سمت الدامغان، حتى ألمّ بها؛ فضمّ النشر، ورمّ الرثّ، وعالج المرتثّ، وكتب إلى فلك المعالي منوچهر يستمده على عسكر الريّ، على أن يقيم له الخطبة، ويظهر الطاعة، ويلتزم الإتاوة، فأمدّه بألفي رجل يوزن آحادهم بآلاف، وأفرادهم بأضعاف، يرون الشرف فرضا لمن مات تحت المشرفيات، والتثريب حقا على من حاد عن اليثربيات. ووصل جناحهم بمال قضى به حق انقطاعه إليه، واعتماده عن ظهر الثقة عليه. ونهض نحو الريّ حتى أناخ بظاهرها، فأعاد الإغارة، ومنع المائرة والمارّة. وغادر الديلم في ضنكة البلاء، وضيقة اللأواء، حتى اضطر مجد الدولة، ومن وليت التدبير إلى إيثاره بأصبهان؛ فعقد له عليها، وخلي بينه وبينها، استمالة لقلبه، واستعاذة من شرّه. فطارت عند ذلك نعرة الخلاف عن رأسه، ورحلت وحرة العناد من صدره. وأقبل يروض عسكره على رشاد وسداد، ويغلّ أيديهم دون امتداد إلى فساد. وصرف عسكر الأمير منوچهر وراءهم يذكر صلاح حاله، واستغناءه عن رجاله. وعطف إلى أصبهان خاطبا لمجد الدولة على منابرها وذلك في سنة سبع وأربعمائة.

و كان نصر بن الحسن بن فيروزان قد انقطع إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة، وأقام على خدمته، إلى أن جعل ناحية بيار وجومند باسمه ورسمه؛ فنهض إليها، وأقام بها يستغلها، ويتوفر عليه دخلها، إلى أن دعاه مجد الدولة من الريّ، فاعتسف البيد إليها إشفاقا من عسكر شمس المعالي قابوس ومكائده، وعيون رباياه ومراصده. فلما وصل إليها، عرف له حق قرابته، وقوبل بما اقتضاه حكم طاعته واستجابته، فبقي هناك سنين مرجوعًا إليه في الرأي والتدبير، وموثوقا به في التقديم والتأخير، إلى أن عثر منه على ممالأة لبعض المخالفين، فقبض عليه وحبسه في قلعة أستوناوند. وما زال بها محصورا، وفي مخلب الامتحان مأسورا، حتى عفي عمّا جناه، وردّ ثانيا إلى ما تولاه.

ووافق مآبه خلع الديلم لجام الهيبة لعدم السياسة، وانفراد مجد الدولة في بيته بالدراسة. وتبسط الديلم فيما شاءوا من غصب وقطع ونهب وكبس ونقب، لا يرتدع منهم إلا من أشعره الله المخافة، وأودع صدره الرحمة والرأفة، فانبرى نصر بن الحسن لقمع أولئك الضلّال، فاجتاح منهم فريقا، وأوسع آخرين تفريقا وتمزيقا. فلما رأى القوم ما دهاهم في أضرابهم من حصده واستئصاله، تجمعوا على قصده وقتاله وأحاطوا بداره، فواقعهم بخاصته مليّا، ثم انثنى منهزما، وغادر ملكه في الدار منهوبا ومغتنما. وما زال يضطرب في محنته إلى آخر مدته.

obeikandi.com

ذكر بهاء الدولة وما أفضى إليه أمره

قد كان بهاء الدولة وضياء الملّة بعد أن فتح الله على السلطان سجستان راغبا في موالاته، خاطبا لمصافاته، مؤثرا لمكاتبته، حريصا على مقاربته بحكم الجوار الواقع بين الدولتين، والصقب الحادث بين المملكتين. ووافق ذلك من السلطان رغبة في مثله من جهته، لشرفه بنفسه وسلفه، ولما حيز لهما من الكفاءة في الملك، والملاءة في سعة الملك. فسفر بينهما السفراء على إلحام سدى القربة، وإحصاد قوى المودة، حتى خلصت القلوب، ونقيت الجيوب، وتأكدت العهود، وتأحدت الحدود.

وعندها أحب السلطان أن يجعل المصافاة مجاهرة، والموالاة مصاهرة، فأنهض القاضي أبا عمرو البسطامي شيخ الحديث بنيسابور إلى فارس، وهو النبيه فضلا، والوجيه محلا، والإمام علما وتحقيقا، والحسام لسانا فصيحا ورأيا وثيقا. وصادف من إجلال بهاء الدولة وإكرامه، وإظهار التلطف عليه في مرامه، ما اقتضته جلالة من أصدره، ومساعدة القدر له في كل ما قدّره. وأقام عليه منقولا من مجلس الإيجاب إلى متوسد الإكرام، ومن راحة الإشبال إلى عاتق الإكبار. غير أن بعيد طلوعه عليه وافق منه علة أحدثها سوء المزاج بين ألف الراحة والراح، فأعياه تنجّز المراد على العارض العائق.

وقد كان فخر الملك مقيما ببغداد، وهو الوزير والنصير ومن إليه الرأي والتدبير، فجشم القاضي إلى ما قبله ليتفاوضا فيما يوجب صرف الرأي إليه، وتأريب العقد عليه، فاتفق مع وصوله استئثار قضاء الله تعالى ببهاء الدولة، وانتقال روحه إلى جوار ربه. وبايع الناس ولده الأمير أبا شجاع، ولقّبه القادر بالله أمير المؤمنين، بسلطان الدولة. واستتبّ له طرق الأمر، واعتدل عليه عمود الملك، وجرى له الطير بالإقبال وحسن الفأل. ولما عاد القاضي إلى ما قبله، لم يملك له من ذاته جوابا يغنيه، ولا حوارا يشفيه، إذ كان دونه رسولا إلى أبيه، فصرفه محملا من رسالته في وراثة الود، والوفاء بسالف العهد، واشتراء الخلوص بقاصية الجهد، ما اقتضاه حكم الابتداء بغرس الوداد، واستثمار الوفاء على ظهر البعاد.

وقد كان الأمير أبو الفوارس أخو الأمير سلطان الدولة مقيما بكرمان، فشجر بينهما خلاف اقتضى سلطان الدولة تجريد الجيوش لقصده، واستصفاء تلك النواحي

واستخلاصها من يده؛ فنهض هو لمقاومتهم، وكف عاديتهم. وأوقدوا بينهم حربا، أفنت الرجال أكلا وشربا، واجتاحت الأرواح طعنا وضربا. واستمرت الكشفة بأتباع الأمير أبي الفوارس فانقلبوا منهزمين، وأقبل هو نحو سجستان يؤم حضرة السلطان يمين الدولة وأمين الملة ممتطيا رجاءه، ومستنهضا كرمه لردّه وراءه. وقد كان أنهي إلى السلطان خبر إقباله؛ فأمر أبا منصور نصر بن إسحاق النائب عن الأمير أبي المظفر نصر بن ناصر الدين سبكتكين بخدمة استقباله، وتكلّف الواجب من أنزاله، وأنزال من معه من طبقات رجاله، ونثر عشرة آلاف دينار من خاص ماله، فبلغ من ذلك مبلغا شهد من كان شاهدا بسجستان من قرّائها وطرّائها إلى أحدا من ملوك هذه الأقاليم لم يتكلف مثله لأحد من أولاد الملوك، ولم يخل أن مثله يسمح به تيار البحور، فكيف أقطار الصدور؟!

واكتسب أبو منصور بذلك لنفسه ذكرا عقد بالنجوم ضفائره، وأفاض على الشرق بعضه وعلى الغرب سائره. ولما وصل إلى حضرة السلطان، أوجب قضاء حق مقدمه بالاستقبال، وتلقي عظيم قدره بالإجلال، وحمل إليه من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام، والإنعام بكل ما ينتمي إلى قبيل الإكرام، ما وقع عند الخاص والعام موقع الاستعظام، ما خلا الهمة التي ترى الدنيا خارجة عن ملكها شعرة من أبشارها، وصوفة من أوبارها، وغرفة من بحارها، بل قطرة من أمطارها.

وأقام عنده قرابة ثلاثة أشهر ضيفا لا يتميز عن الأدنين أرحاما وشيجة، وأنسابا قريبة، حتى إذا نشط للانصراف، والتمس معونته على عارض الخلاف، ارتاح السلطان لما استدعاه، فأعطاه فوق رضاه، أموالا أحفت أقلام الكتّاب، وأوهت أنامل الحسّاب.

وأنهض في صحبته ونصرته وإقامة خدمته أبا سعيد عبد الرحمن بن محمد الطائي أحد مشايخ بابه، وأفاضل كتّابه، في رجال قد تعودوا النصر منذ خدموا رايته، فلم يعرفوا وجه الانقلاب إلا بالأنفال على الأكفال[1]: [البسيط]

تحملت صهوة أخرى شواكلها ... من طول ما احتملت سبيا على الكفل

وتوجه الأمير أبو الفوارس فيهم وفي سائر خاصته نحو كرمان، فجلا عنها من كان ولي عليها علما بعجزه عن المقاومة، وافتضاحه إن تعرّض للمحاكمة، فملك تلك النواحي ملكه إياها من قبل. وأقام بها أبو سعيد إلى أن قرّت تلك الأمور، ودرّت

(١) انظر: يتيمة الدهر ٣/٤٥٠.

للجبايات الشطور. ثم كرّ وراءه فيمن كانوا برسمه وتحت قيادته، وأتت على ذلك مدة من الزمان تمنع حشمة السلطان يمين الدولة وأمين الملة، وحرمة الناهضين من أتباع رايته في أمر وسمه بعز عنايته أن يقصد بما يوهم خلافا عليه، حتى إذا عاودت تلك الجيوش، وانفرد الأمير أبو الفوارس بالتدبير، وارتاش بعد التحسير، سرّب سلطان الدولة عسكرا ثانيا لمواقعته، واستخلاص تلك الناحية عن يده، فتلاقيا على حرب أشابت القرون تحكيما لظبى الصفاح في مخارج الطلى، وتحويما لشبا الرماح على موارد الكلى، حتى تشقّرت الأرض من صبيب الأوراد، وتمغّرت من رشاش الأكباد. وعندها زلّت قدم الأمير أبي الفوارس فولّى كسيرا، لا يعرف قبيلا ولا دبيرا. وانتهى به الركض إلى همذان حضرة شمس الدولة بن فخر الدولة، فقضى فيه حق القرابة إعظاما لقدره، واهتماما بأمره، واغتناما لشكره، واستعدادا لنصره. وأقام مدة مديدة على هذه الجملة، حتى استشعر أو أشعر أنه مغرور ومقصود، وإلى الأمير سلطان الدولة مردود، فنفر نفار الأيّم من ضربة القاتل، والوحش من كفة الحابل. وفارق مظنته قاصدا قصد بغداد. وسنشرح إن شاء الله تعالى من بعد حاله، وما انتهى إليه أمره، مما كان عليه أوله.

ذكر أيلك الخان وما انتهت إليه حاله

قد كان أيلك الخان بعد الكشفة التي اتجهت عليه بباب بلخ، فركب ظهر جيحون وعاد وراءه يضطرب على نفسه غيظا مما دهاه، وأسفا على ما أعياه، وما زال يعاتب طغان خان أخاه، ويستنصر قدر خان على ما أوهى من قواه، وفوّته من مراده ومغزاه، والقدر له معاند، والزمان مناكر ومناكد، حتى طرحه الكمد على فراشه، وفجعه عن قليل بطيب حياته، فأشبعه التراب، بعد أن جوّعه الحرص والاضطراب، همة كانت معلقة بالأثير، محلقة على فلك التدوير، غير أن يد القدر فوق يد التدبير، وما يصنع المرء بالجد إذا وافق الجد سافلة البئر؟!

فهبه رحى يجري لها اليمّ ماءها ... وليس لها قطب بماذا أديرها؟

وقد ينهض العصفور كثرة ريشه ... وتسقط إذ لا ريش فيها نسورها

وكانت وفاته في سنة ثلاث وأربعمائة. وولي مكانه أخوه طغان خان، فمالأ السلطان يمين الدولة وأمين الملة ووالاه، وهاداه متلافيا بزعمه لما أخلّ به أخوه، ومتوددا من حيث ركب الخلاف ذووه.

وجاشت من جانب الصين جيوش لقصد طغان خان، وبلاد الإسلام من ديار الترك وسائر ما وراء النهر، يزيد عددهم على ثلاثمائة ألف خرگاه لم يعهد الإسلام مثلها على صعيد واحد، يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ بغيا طالما صرع أهله وأوردهم كما يورد الهدي محله، فاستنفر من خطط الإسلام حتى اجتمع إليه من رجال الترك وأحرار الغزاة والمطوّعة قرابة مائة ألف رجل. واستكّت أسماع المسلمين من فظاعة ذلك النبأ الهائل، والبناء المائل، فارتاعت له القلوب، والتاعت النفوس، وتناصرت الأدعية والذكور.

وسار طغان خان مستقبلا من أقبل عليه من جموع الكفرة بنيّات مقصورة على الاستقتال، والاستقبال للآجال، أو ينزل الله نصره، ويظهر حزبه، تحقيقا لما وعدهم على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول، وقوله الحق: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر:٥١].

والتقوا أياما تباعا على ملاحم لم يدر من فتق العروق، وضرب الحلوق، وشد الخيول على الخيول أصوب أنواء أم صبّ دماء؟! ولمع بروق أو وقع السيوف؟! وظلمة

ليال أو رهج نزال؟! وفي كل ذلك يتولى الله عبادة بالأيد المتين، والنصر والتمكين، حتى وثقوا بالصنع المستبين، وطلوع النجح مشرق الجبين.

و تلاقوا ليوم منصوص عليه على فيصل الحرب، فشدّ بهرام لها نطاقه، وأدار على الفريقين دهاقه. فأما أعداء الله فسكروا سكرا استوجبوا به الحدود بالحدود البواتك، فصبّت عليهم من لدن لاح جبين الشمس إلى أن ذكت سراجا وهاجا، وكادت تصير على قمم الرؤوس تاجا. وأما أولياء الله فانتشوا نشوة طربوا معها للضرب فوق الهام، والعبث بطلائع الحمام، لا جرم إن الله حماهم ونصرهم، وآواهم وأظفرهم، فغادروا من جماهير الكفار قرابة مائة ألف عنان صرعى على وجه البسيطة عن نفوس موقوذة، ورؤوس منبوذة، وأيد عن السواعد مجذوذة، نقرى للضباع، بل جفلى للسباع والوحوش الجياع. وأفاء الله على المسلمين مائة ألف رأس غلمانا كالبدور، واللؤلؤ المنثور، وجوار كالحور العين، والبيض المكنون، وسوائم غصّت بها أقطار البيداء، وضاقت عنها أطرار الدهناء. وشرد الباقون وراءهم تشلّهم السيوف شلّ الأنعام، وتختطف أرواحهم بأيدي الحمام. وتطايرت به البشارات في ديارات الإسلام، فنضرت لها الوجوه، وضحكت القلوب، وعمّ السرور، ووفر الشكور، وتباشرت الدور حتى القصور والخدور، لطفا من الله تعالى لدين ارتضاه، ووعد أن يصل بيد التأييد قواه.

و لم ينشب طغان خان بعد أن فرغ من هذه الحرب العظيم بأسها، الشديد مراسها، أن استأثر الله به، فنقله إلى جواره، وبوّأه مبوأ الصدّيقين من دار قراره، ختما له بالشهادة، وحتما عليه بالسعادة.

وورث مكانه أخوه أرسلان خان أبو منصور الأصم صنوه في التقية، وتلوه في الأمور الإلهية، ثبت المقام في دين الإسلام، لا تعرف له جاهلية، ولا تنقم منه عنجهية ولا عجرفية، يقيم الصلوات جماعة، ويفترض العدل سمعا لله وطاعة. وعمر الحال التي كانت بين طغان خان أخيه وبين السلطان يمين الدولة وأمين الملة إظهارا للمصافاة، واستشعارا للمؤاخاة، وإيثارا للاشتراك على تصاريف الحالات.

وخطب السلطان إليه كريمة له على ولده الأمير الجليل أبي سعيد مسعود بن يمين الدولة وأمين الملة، فأحسن الإجابة، واغتنم القرابة. وتردد بينهما السفراء في ذلك مدة على جملة التهادي، ورصّ الحال باقتسام الأيادي، إلى أن حقّت الحقيقة، وتمت العقدة

الوثيقة. وأنهض السلطان من اختارهم من ثقات بابه لنقل اليتيمة الكريمة، فجهزت وديعة تشاحّ عليها ملكان: هذا صدر الملك، وذاك ملك الترك، يختصّ بها الشبل ابن الليث، والوبل ابن الغيث، والتيار ابن البحر، والصباح ابن الفجر، الأمير الجليل أبو سعيد مسعود بن محمود. ونقلت إلى الحضرة ببلخ، وقد صحبها من فقهاء تلك الدولة وأعيان رجالها من عدوا أئمة المشرق، وأرباب المنطق، فأدوا أمانتي اليد واللسان، على ما ألحمت الحال بين الجنبتين، ورفضت الحشمة في ذات البين.

وأمر السلطان أهل بلخ قبيل الوصول بعقد الآذين، وتكلف التنجيد والتزيين؛ فبلغوا من ذلك مبلغا لم يستبق فيه من الوسع مذخور، ولا من الرسم مذكور ومسطور.

ورأى السلطان بعد ذلك أن يرفع من قدره؛ فعقد له على هراة سرة ملكه ونواحيها، وسيّره إليها بعد أن وصله بمال عظيم، يعدّه ذخيرة، ويوسعه تجملا وزينة. فنهض إليها رشيد السيرة، حميد السريرة، عادل الطريقة، فاضل الخليقة، خليقا بالملك على الحقيقة، وذلك في سنة ثمان وأربعمائة.

obeikandl.com

ذكر الأمير أبي أحمد محمد بن يمين الدولة وأمين الملة

جملة ما يمكن الإفصاح به، والإيضاح عنه من حاله، وذكر خصاله، قول القائل[1]: [الكامل]

إن السريّ إذا سرى فبنفسه وابن السري إذا سرى أسراهما

قد جمع الله له من الميل إلى خصائص الأدب، والسعي لمعالي الرتب، والبعد عن مكان الريب، مادلّ على أنه ابن أبيه، شرفا سمقت على النجوم شرفاته، وكرما تعرفت لأهل الفضائل عرفاته، فإنه خرج من حضن الكفالة خروج الإبريز من جمرات السابك، والهلال من تحت الشعاع المتشابك. لم يعرف له طول أيام الإيفاع غير الارتفاع إلى اليفاع، تصرفا على كرم الطباع، وتقييدا للمأثور بالسماع، وبذلا لما لفظته يد الطباع، وارتياضا بآداب الثقافة والمصاع، وتمرينا للبنان بين القلم والعنان، وتعويدا للسان ذكر الإصابة والإحسان، حتى إذا نزع يداه برد الحداثة، ولبس خداه طوق الشهامة، رأى السلطان أن يوفيه حق البنوّة، ويؤتيه شرط المروءة، ويجذب بضبعه إلى حيث اقتضته الفراسة فيه، واستدعته العناية به، والرعاية له، فزوّجه كريمة الأمير أبي نصر الفريغوني والي الجوزجان، وهي التي تجمع إلى الأصالة جلالة، وإلى الكفاية كفاءة، وإلى النعمة همة.

وعقد له على أعمال الجوزجان. كما عقد للأمير الجليل أبي سعيد مسعود على هراة. وهي التي وليها آل فريغون، وهم الذين حكوا في العزّ أفريدون وفي الهمّة المنجنون، وفي الغزارة والسماحة جيحون.

وولى أبا محمد الحسن بن مهران كفاية أموره، وولاية تدبيره؛ فبرز إليها بروز السيف من يد الصاقل، وهمى على أهلها همي السحاب الهاطل، وأحياهم بندى العدل الشامل، وعدل في العطف عليهم بين الأيامى والأرامل؛ فعلقته قلوب الخاص والعام، وكفته النفوس مؤونة الاستخدام.

ولما رأى السلطان حميد أثره، ورشيد مختبره، ازداد شغفا بآثاره، وحرصا على اصطناعه وإيثاره، فلم يخل من جديد إنعام، ومزيد حفاوة وإكرام. وسيأتي بيان خبر الأمير الجليل في موضعه من بعد بإذن الله.

---

(١) انظر: يتيمة الدهر ٣/٢١٥، وشرح نهج البلاغة ٢٠/٨٤.

ذكر التاهرتي الرسول الوارد من مصر

قد كان السلطان يمين الدولة وأمين الملة منذ شحذ الله عزيمته لغزوات الهند محييا لسنة أبيه، مقتفيا نهج آثاره ومساعيه، باحثا على طريق النظر وسبيل الجدل عن سنن الإسلام، والبدع المعترضة عليها في سالف الأيام، استبصارا منه في الدين، واستظهارا على قمع الملحدين، فقرأ الكثير، وسمع التأويل، وتتبع القياس والدليل، وعرف الناسخ والمنسوخ، والخبر الصحيح والموضوع، وتلقى من أصول الدين ما لم يستجز معه في الدين بدعة، ورأى ما يخالف ظاهره نكرا وشنعة.

وألقي إليه أن في غمار الرعايا بخراسان أقواما ينتحلون مذهب الباطن المنسوب إلى صاحب مصر، ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض، بتأويلات موضوعة تؤدي إلى رفع قواعد الدين، ودفع معاقد الحق واليقين، وإبطال معالم الشرع، وتتبع أحكام الله بالرفض والنقض؛ فأمر بوضع العيون عليهم، وإلصاق الطلب بهم.

و عثر على رجل كان سفيرا بين المذكور وبين أوليائه، والملبّين لدعائه وندائه، يعرف القوم بسيماهم وأسمائهم، فنصّ على عصابة منهم مختلفي البلدان والأوطان؛ فأشخصوا إلى الباب، ورجموا تحت الصلب بالأحجار. ولم يزل يفعل مثل ذلك بأضرابهم، ومن كان يخرج له ذكر بألقابهم، حتى التقطتهم حجارة الرجم والرضّ، عن بساط الأرض.

وقد كان الأستاذ أبو بكر محمد بن إسحاق بن محمشاذ زعيم أصحاب أبي عبد الله بن كرّام، غزير الفضل، كبير المحل، مذكورا بالديانة الوافية، والأمانة البادية والخافية، ومشهورا باليقظة على الفرق الغالية والبدع الجافية. فوافق رأي السلطان على اجتياح من ركب بنيّات الطريق، وعدم في العدول عن مثل مخارف النعم مساعدة التوفيق، ونبّهه على عدة زعم أنهم ضلّال، ولهم في فضول القول، وهذر المحال مجال؛ فسلكوا في أصفاد الآخرين، ونصبوا عبرة للناظرين.

وازداد أبو بكر فيما تقرّب به من ظاهر المحاماة على دين الله، والمراماة دون حق الله، وتطهير بيضة الإسلام عن كل ذي ريبة بعيدة أو قريبة، حشمة أطمعت فيه الرجال، وأمالت إليه الآمال. وأية حشمة وضع الله عليها طابع الدين، فهي في جوار النجم علو

مكان، وسمو شأن. وكفاك بها فخامة ما ورد في الخبر المروي أن الله تعالى قال للدنيا: «من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاتعبيه أو فاستخدميه».

واتفق بعقب ذلك أن طلع رجل من ديار العراق ينتسب إلى الشجرة العلوية يذكر أنه رسول صاحب مصر إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة بكتاب تحمّله، وبرّ تزوّده. فورد نيسابور مدلا بسبب النسب، ومدليا بشرف السلف، فاستوقف إلى أن أنهي إلى السلطان خبره، ووكل إلى ما يرد من مثاله صدره. ونهض من بعد ذلك إلى هراة ممتدا إلى الحضرة، فأمر بردّه إلى نيسابور، لتقرير ما تحمّله على رؤوس الأشهاد، وبمرأى ومسمع من كل حاضر وباد، صيانة لخاص مجلسه عما عسى أن يضاف إليه من إحالة، وسرّ تحت رسالة. فلما ردّ القهقرى وفتّش عما صحبه، عثر على تصانيف الباطنية، وأغاليط في الشريعة الحنيفية، أصح منها في الأسماع خباط المجانين، ووسواس المبرسمين. لا تؤخذ في محصول، ولا توجد في معقول ومنقول.

وناظره الأستاذ أبو بكر على أمور من جهة مرسله، تفاوتت فيها ألفاظه، فلم يوجد له على نار الامتحان ثبات، ولا إلى وجه التحقيق وجانب التمييز التفات. ومازال يضرب أخماسا لأسداس إلى أن تبين له أنه أخطأ في تحمل تلك الرسالة، وحرم التوفيق في تقلد تلك السفارة.

وقضى الله أن أشخص إلى حضرة السلطان، فلما استحضر مجلس حفله وقد غصّ بأعيان الإسلام، ساداتها وكبرائها، وقضاتها وفقهائها، وغزاتها وزعمائها. وهناك الحسن بن طاهر بن مسلم العلوي، ومن قصته أن جدّه مسلما لم يكن في الطالبية من أولاد الحسين الأصغر رضي الله عنهم بناحية مصر أوجه وأنبه منه، ولا أغنى ولا أفتى منه. فلما استقر معد أبو تميم المعز بمصر، خطب إليه بعض بناته على ولده أبي منصور الملقب بالعزيز. وسبب ذلك- على ما قيل- أنه وجد في داره رقعة فيها:

إن كنت من آل أبي طالب ... فاخطب إلى بعض بني طاهر
فإن رآك القوم كفئا لهم ... في باطن الأمر وفي الظاهر
فأم من سفّه خوزية ... يعضّ منها البظر بالآخر

فنسبهم الشاعر إلى أمهم الخوزية بالعسكر لأن كورتها خوزستان، وهي أم محمد بن عبد الله بن ميمون. فاعتلّ مسلم عليه بأن لا واحدة من بناته إلا وهي في حبالة

وتحت عقدة، تفاديا من إجابته، وتحرّجا من مصاهرته، فلما عرف امتناعه ذهابا بنفسه عنه، وترفعا بنسبه دونه، وضع عليه يد الاستقصاء بعد أن أودعه الحبس سنين، وخبطه خبط العصا ورق السّلم، وألبسه عن فضفاض الغنى غلالة العدم، وهلك من بعد على يده. فقال قوم: غيّب عن محبسه، فما يدرى كيف صار أمره؟ وأين جعل قبره؟

وزعم آخرون أنه هرب من الحبس على طريق الحجاز، فاحتضر في الطريق. وعند ذلك لجأ طاهر والد الحسن المذكور إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، فاستولى عليها متأمرا على أهلها، ومعه ابن عم له يعرف بأبي علي بن طاهر وهو ختنه على أخته. فلما مضى لسبيله، ورث أبو علي مكانه من الإمارة إلى أن لحق به وورثه ولداه هانىء ومهنى دون الحسن لا ستضعافهما إياه، وتقوّيهما بالحال والمال عليه، فرحل هو نحو خراسان ملتجئا إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة.

فلما ورد التاهرتي بزعمه رسولا، صغّر الشريف الحسن شأنه، ووضع فيه لسانه، وأبى أن يكون له نبات على دوحة الرسالة، وانتساب إلى نبعة النبوة، وادعى عليه فساد الدين، واستحقاقه ضرب الوتين، فخلّى السلطان بينه وبين ما يستجيزه لنفسه ودينه فيه، فقام إلى جيده بضربة غرقته في دم وريده.

وقد كان الإمام القادر بالله أمير المؤمنين كتب إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة بما ترامى إليه من خبر الرسول، وما يقتضيه الدين من التصلب عليه، وتقديم الجد في الانتصاف للإسلام والمسلمين منه. فلما ختم أمره بما تقدم ذكره، أنهي إلى مجلس الخلافة صورة الحال، وكعم السيف أفواه العذّال، فقوبل من القبول بمقتضاه، وجزي الخير على ما أتاه وتوخّاه، فكان مثل التاهرتي كما قيل[1]:

ومن يشرب السم الزعاف فإنه حقيق بأنياب المنايا النواهس

(١) انظر: نهاية الأرب ١١١/٣، وبهجة المجالس ١٩٩/١.

ذكر الأمير أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه وما ختم به أجله إلى أن ورث السلطان ملكه

قد كان أبو الحسن علي بن مأمون لما ورث أباه مأمونا مملكته، وقد كان استضاف خوارزم إلى الجرجانية خطب إلى السلطان يمين الدولة وأمين الملة إحدى أخواته تقوية لعمدة الحال، وتسدية للحمة الوصال، فأوجب إسعافه بما استدعاه، استكفاء إياه، وتوخيا لرضاه، وزفّ إليه من خطبه، ووصل بأسبابه سببه، ودرّ التهادي بينهما حتى صارت الديار واحدة، والأسرار لغير الإخلاص جاحدة. وغبرت الحال على جملتها في الاتّشاح والامتزاج، إلى أن قضى خوارزمشاه نحبه، ولقي بانقراض الأجل ربه، وورث أبو العباس مأمون بن مأمون مكان أخيه، وولي ما كان يليه، فكتب إلى السلطان يسأله أن يعقد له على شقيقته عقده عليها لأخيه من قبل، فهو تاليه في الطاعة بل أتم إخلاصا، وثانيه في القربة بل أشد اختصاصا. فشفع السلطان فيه داعي الكفاءة، واستجدّ للحال رونق الطراءة، وعقد له عليها عقدا خلطه فيه بنفسه، وفرّغ له فريقا من قلبه وخلبه. ومازال الأمر على جملة الاشتراك والاشتباك إلى أن دعا السلطان داعي الاختبار إلى سومه إقامة الخطبة باسمه، وأنهض رسولا يتنجّزه العمل بما يقتضيه ظاهر حكمه، فصادف منه حرصا على الإجابة، وافتراضا لحق الطاعة، غير أنه عرض الحال فيه على من حوله من أعيان أشياعه وأتباعه، فأظهروا نفارا، وأصروا واستكبروا استكبارا، وقالوا: نحن أتباعك وأطواعك ما سلم لك الملك عن الاشتراك، فأما إذا وضعت خدك للطاعة، وضعنا السيوف على العواتق خلعا لك، وتمليكا عليك، وجهادا فيك، فعاد الرسول إلى السلطان بما رآه عيانا، وسمع بغيا وعدوانا.

وأحس القوم بحمرة الدم من وراء جرأتهم على ولي نعمتهم بالقول الفظيع، والرد الشنيع، وزعيمهم في الأمر يومئذ ينالتكين البخاري صاحب الجيش، فأوجسوا خيفة، وتآمروا على الفتك به غيلة. ومازالوا في التدبير عليه إلى أن دخلوا عليه ذات يوم على رسم السلام، فإذا هو صريع كأس الحمام، لا يدرى كيف قتل، ومن أي وجه إليه قد وصل. فبادروا بالعقد لأحد ولده، وبسطوا أيدي الإصفاق على بيعته.

وعلموا أن السلطان يمتعض للحادثة، ويقصد قصد الانتصاف للوارثة؛ فتحالفوا على مقارعته إن غزاهم في عقر دارهم، وجزاهم على مسخوط آثارهم.

و لما انتهى إلى السلطان خبر صنيعهم بولي نعمتهم، وهو قيّم شقيقته وحامي حقيقته، أزعجته قوة الحفاظ للانتقام من أولئك الغدرة الفجرة، والمرقة الفسقة. فجاش لمناهضتهم على حمية مسجورة، وحفيظة على ابتغاء مرضاة الله مقصورة. وكانت سعادة أيامه قد لقنت أولئك العتاة البغاة ما أتوه استحقاقا للنقمة، وبراءة من العصمة، وتمهيدا لعذره قربا وبعدا في استخلاص مملكة كانت إلى عزّ إيالته نازعة، ولباب الإقبال برفق سياسته قارعة. وجرّ الجحافل كالجبال سائرة، والبحار زاخرة، حتى أناخ بعقوتهم مستعينا بالله على قتالهم، واستنزالهم إلى مناهل آجالهم.

وشاور صاحب الجيش الخوارزمي عامة قواده في ركضة على طلائع السلطان بياتا تعضّهم بأنياب الحديد، إن لم تسلمهم للتشريد والتبديد، فطار تحت خوافي الليل حتى انقضّ على أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي- وهو طليعة السلطان في كماة العرب- حين أنقض الكرى رؤوسهم، وشغل برد الصباح نفوسهم. واختلط البعض بالبعض ضربا بالسيوف القواصل، وطعنا بالرماح الذوابل. وطار الخبر إلى السلطان بركض القوم، فزحف بجيوشه إلى معترك الحرب. وثبتت الخوارزمية من لدن طلوع الشمس إلى أن حمي وطيس النهار جاهدين في القراع، مجاهدين دون المساكن والرباع، يظنون أن يظفروا وقد غدروا بمن ربّاهم في حجور الإنعام، وأرواهم من ثدي الإكرام، هيهات إن الغدر قلادة منظومة، أحد طرفيها عاجل العار، وثانيها آجل النار. ولم تشرف الشمس على التكبيد حتى أضجعت الخيول ثم الفيول رجالا حكوا جمالا، قد قصفت أصلابهم، وانتهبت أسلابهم، وفلقت بالسيوف هامهم، وبضعت بها أجسامهم، وانهزم الباقون في خمر الغياض على شاطىء جيحون، والصوارم من ورائهم تخطب أرواحهم، حتى إذا واقعتها نحلتها الطلاق صداقا. واستأسر زهاء خمسة آلاف حقن الله دماءهم عبرة للنظّار، وعظة لأمثالهم من الغدرة الفجار. وركب البخاري ظهر الماء موائلا في الهرب، ومقدرا خلاصه من العطب، ولم يدر أن فعلة السوء تجزيه، وإقدامه على ولي نعمته يرديه، وأن حافر البئر لأخيه ساقط لا محالة فيه.

وجرت في الزورق بينه وبين بعض أضرابه منافرة حملته على الاستيثاق منه، وبعث الملّاح على استقبال المعسكر بوجه الزورق، فلم ينشب إلا يسيرا، حتى حصل في يد السلطان أسيرا. وأحضره السلطان مجلسه في سائر القواد المأسورين، يسأله وإياهم عن

استحلالهم دم صاحبهم من غير داعية، واجترائهم عليه من غير وطأة عاتية. فردّ جواب المستبسل المستقتل، وأما الباقون فسقط في أيديهم لا يدرون ماذا يردّون.

وأمر السلطان بضرب الأعواد والجذوع تجاه مقبرة صاحبهم أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزمشاه، وصلبهم أجمعين عليها، مع عدة ممن اتهمهم بالدين، وعدّهم معد الناكبين عن قصد السبيل. وأمر بالكتابة على جدران تلك المقبرة بأن هذا قبر فلان بن فلان، بغي عليه حشمه، واجترأ على دمه خدمه، فقيّض الله يمين الدولة وأمين الملة أبا القاسم محمود بن ناصر الدين سبكتكين حتى انتصر له منهم، وصلبهم على الجذوع عبرة للناظرين، وآية للعالمين.

وأمر من بعد بالأسرى فوضعت الأغلال في أعناقهم يقادون إلى غزنة دار الملك فوجا بعد فوج، حتى إذا حصلوا بها وقد امتلأت منهم العيون، وغصّت بهم المحابس والسجون، منّ عليهم بالإفراج، وفرض لهم في جملة سائر الحشم والأجناد، ووضعهم مواضع أمثالهم من ديار الهند ربايا يحمون أقطارها، وينفضون عن عيون العيث مناكبها وأطرارها.

وولّى خوارزم حاجبه الكبير أبا سعيد التونتاش، فأقام بها قامعا نجوم الفساد، وفاقئا عيون الغي والعناد. إلى أن نضب ماؤهم، وأذعن للطاعة أفناؤهم، واستقرت تلك الأسباب، ودرّت الأحلاب، و﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦]، والْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ.

ذكر فتح مهرة وقنّوج

ولما فرغ السلطان يمين الدولة وأمين الملة من مهم خوارزم وقد انضافت كإحدى أخواتها إلى سائر ممالكه الموشحة بآثار ولايته، الموشعة بأصباغ عدله ورعايته، رأى أن يختم صحيفة العام بطابع الاستتمام، إجماما للركائب والركب، وتقليبا للرأي في الغزو بين جوانح القلب، فعدل إلى بست كالشمس قد جنحت للشمال، وجاوزت نقطة الاعتدال، فالدنيا بها حواشي المطارف، أو عواشر المصاحف، أو عقود المخانق أو نهود المعصرات العواتق، يدبر أعمالها، ويروّي فيما صار أحمى لها، إلى أن أذن الله له في معاودة غزنة منشئا سحاب الفكر في غزوة تحقق إعجاز القرآن، بما تضمّنه من وعد الله المنّان، في إظهار دينه المرموم بسيد البشر، ومولى البدو والحضر، محمد تاج الأنام، وسراج الظلام، صلى الله عليه وسلم وعلى آله خيرة البررة الكرام، على الدين كله وإن سخطت نفوس، وضرعت خدود، ورغمت معاطس وأنوف.

وبعد أن كانت الشقة قد بعدت عليه وعلى أعوان دين الله السائرين تحت رايته بنور هدايته، إذ كانت الهند قد تحيفت من شواها وأطرافها سبيا وانتهابا، وملكت على أربابها سهوبا وشعابا، فلم يبق إلا ما أجنّه ضمير قشمير، ومن دونها فياف تصمّ عن كل عزيف وصفير، وتضلّ بينها وفود الرياح إلا بخفير.

واتفق أن حشر إليه من أدنى ديار ما وراء النهر إلى أقصى حدوده زهاء عشرين ألفا من مطوّعة الغزاة، وقد وضعوا سيوفهم على عواتقهم محتسبين للجهاد، منتدبين في ذات الله للاستشهاد. يخطبون الجنان بصداق الأرواح، ويستامون الغفران بحدود الصفاح. فحرّك السلطان نفيرهم، وذمر نفوس المسلمين تكبيرهم. واقتضى رأيه أن يزحف بهم إلى قنّوج وهي التي أعيت الملوك الماضين غير كشتاسب على ما يزعمه المجوس، وهو كبش أقرانه، وملك الأملاك بزعمهم في زمانه، فثار وبين غزنة دار الملك وخطة قنّوج مسيرة ثلاثة أشهر سير الركائب القود، والخوانف السود.

واستخار ربّه وسار، وهجر النوم والقرار، واستصحب من شهد من أنصار دين الله، وأعوان حق الله، رجالا يقتحمون أشداق المنايا، شوقا إلى السعادة بالشهادة، وحرصا على الموعود من الحسنى والزيادة. وعبر مياه سيحون وچيلم وچندراهة وإيرايه وبيت هرز وشتلدر سالما في سالمين. وهذه أودية تجلّ أعماقها عن الأوصاف، وتمتنع

أطرافها على الأطواف، منها ما يغمر غوارب الفيول، فكيف كواهل الخيول! ويدهده ثقال الصخور، فكيف خفاف المطايا والظهور! صنعا من الله بمن والاه، وغرّر بروحه في استدامة رضاه.

ولم يطأ مملكة من تلك الممالك إلا أتاه الرسول واضعا له خدّ الطاعة، عارضا في الخدمة كنه الاستطاعة، إلى أن جاءه چنكي بن سمهي صاحب درب قشمير عالما بأنه بعث الله الذي لا يرضيه إلا الإسلام مقبولا، أو الحسام مفلولا. فأظهر العبودية عن حاضر التوفيق، وضمن الإرشاد باقي الطريق. وجعل يسير أمامه هاديا، ويجزع واديا فواديا، وكلما انتصف الليل آذن بالمسير خفق الطبول، واستوى أولياء الله على ظهور الخيول، يجشمون تعب الركض والسلوك، إلى أن تجنح الشمس من غد للدلوك، حتى استظهر ماء جون لعشر بقين من رجب سنة تسع وأربعمائة.

وما زال يفتتح الصياصي والقلاع مبنية على ربود الجبال، وحروف القلال، بحيث تألم متالع الأعناق متى شخصت إليه نواظر الأحداق، إلى أن شافه قلعة برنة من ولاية هردب، وهو أحد الرايان أعني الملوك بلغة الهند، فاطلع على الأرض اطلاعة وهي تموج بأنصار حق الله مسوّمة من فوقها الترائك، ومن حولها الملائك، فتزلزلت قدمه، وأشفق من أن يستباح دمه، فرأى أن يتقي بالإسلام بأس الله وقد شهرت حدوده، ونشرت بعذبات العذاب بنوده. ونزل في نحو عشرة آلاف منادين بدعوة الإسلام، متفادين عن ولاية الأصنام، فحقق الله ميعاده، وأحسن بفضله إسعادهم وإسعاده.

نعم، وامتد الوجيف به بعد إلى قلعة كلچند، وهو من أعلام الشياطين، وأعيان أولئك الملاعين، يدل على الملوك بعز أقعس، ويرنو إلى القروم بطرف أشوس، قد قضى في الكفر معظم عمره، وغني بهيبة الملك وبسطة الأمر عن تجشيم بيضه وسمره. ولم يقصده أحد إلا ارتدّ عنه مغلولا، وعاد عقده عنه محلولا. عزة حال، وكثرة مال، وقوة رجال، وعدة أفيال. ووثاقة معاقل وحصون، وملك عن مطامع الأنام ومطامح الوهن والانثلام مصون. فلما رأى السلطان قد قصد قصده، وجرّد لمجاهدته جهده، رتب فيوله وخيوله وراء غياض لو رميت بأفراد الإبر، لاتّقتها الأرض بأوراق الشوك والشجر، وأغرى السلطان به بعض طلائع جيوشه، فثاروا إليهم يخرقون تلك الآجام خرق الأمشاط منابت الشعور، بل الأشافي مخارز السيور.

وأعرضت للسلطان طريق من فوق القلعة المذكورة، فلم يرع أهلها إلا البحر الأخضر، والله أكبر، والسيوف لا تبقي ولا تذر. فثبتوا للجلاد مستقتلين، وتواصوا بالمنايا مستبسلين، والسيوف تأخذهم من فوق وقدّام، وتبضّعهم ما بين لحوم وعظام وحملاتهم بينها تتصل اتصال الكعوب، وضرباتهم تتوالى توالي الغيث المصبوب، غير أن الله منزل الحديد ذي البأس الشديد هو الذي إذا شاء قطع، وإذا شاء نبا وامتنع.

[من الطويل[1]]

كَـذاكَ سُـيوفُ الهِنـدِ تَنبـو ظُباتُهـا وتقطــع أحيانــا منــاط القلائــد

فإن نالت من أولياء الله، فلأجر الاستشهاد، وثواب المعاد، وإن نبت فلإعجاز القدرة، وإظهار العبرة؛ ليعلم أن الحكم لله في كل مخذول ومعصوم، ومحروس ومقصوم.

وظل المخاذيل يتنامسون بينهم وقد عاينوا سيوفهم نابية، وسيوف أهل الحق عليهم ماضية، وحملاتهم واهية، وحملات أهل الدين أولى وثانية. ما هؤلاء من جنس الأنس ولا من زمر البشر، هيهات إن وقع الحديد ليجزّ في الجبال، ولا حزّ له في هؤلاء الأبطال، حتى إذا مثل لهم شخص الطغيان في صورة الخذلان، تواصوا باقتحام ما وراءهم من زاخرة المياه يظنون أنها تقيهم بأس الانتقام، وتحميهم كأس الحمام، أو لا يرون أن الكفر لا يهدي سبيله، وأن الله يردي بكثير ما يحيي قليله! لا جرم إن صفائح الماء وافقت صفاح الدهماء، فأوسعوا قتلا وأسارا، وأغرقوا فأدخلوا نارا. ولعل عدد

---

(١) البيت للفرزدق يعتذر لنفسه، ويُعيّر بني عبس بنُبوّ سيف وَرْقَاءَ بنِ زُهَيْر عن رأس خالدِ بنِ جَعْفر.

انظر: جوهر الكنز ٢٨٣/١، والأغاني ٣١٠/١٠.

الفَرَزدَق: (٣٨ - ١١٠ هـ / ٦٥٨ - ٧٢٨ م): هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فراس. شاعر من النبلاء، من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة.

يشبه بزهير بن أبي سلمى وكلاهما من شعراء الطبقة الأولى، زهير في الجاهليين، والفرزدق في الإسلاميين. وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر. كان شريفاً في قومه، عزيز الجانب، يحمي من يستجير بقبر أبيه.

لقب بـ(الفرزدق) لجهامة وجهه وغلظه. وتوفي في بادية البصرة، وقد قارب المائة.

ينظر ترجمته في: طبقات فحول الشّعراء ٢٩٨/٢، والشّعر والشّعراء ٣١٠، والأغاني ٢٧٨/٢١، والخزانة ٢١٧/١.

القتلى وعدد الغرقى يزيد على خمسين ألفا أصبحوا طعما للنسور والضبعان، وأقواتا للتماسيح والحيتان.

وعمد كلچند إلى قتّالته، فأهلك بها عرسه، ثم كرّ فألحق بها نفسه. وأغنم الله السلطان مائة وخمسة وثمانين رأسا من الفيلة الضخام، مضافة إلى سائر ما اطرد عليه حكم الاغتنام، من نعم الله العظام، وقسمه الراجحة الأقسام.

ولما وضعت تلك الحروب أوزارها، وحلّت له الغنائم أزرارها، عطف عنانه إلى شط البلد الواقع عليه اسم المتعبد وهو مهرة الهند، يطالع أبنيتها التي يزعم أهلها أنها من صنيع الجنان دون الإنسان، إبداع أساس وسقوف، وإعجاز أوساط وحروف، فرأى ما يخالف العادات، ويفتقر رواتها إلى الشهادات بل المشاهدات. بلدا مبني السور من صمّ الصخور، قد شرع بابان منها إلى الماء المحيط به، موضوعة أبنيتها فوق شواخص التلال، صيانة لها من مضار سيول الماء، ومغار غيوث السماء. وعن جنبتيها ألف قصر شبيهة بسائر الأبنية في الوثاقة، مشتملة على بيوت أصنام قد هندمت مفاصل أعراقها بمسامير تساوي سطوح البناء، وتواري ما وراءها من الحزوز تحت الخفاء. وفي صدر البلد بيت أصنام يحكي أخواته أو أحسن، ويجري مجرى أضرابه بل أتقن، لا يهتدي الكتاب بأقلام الدواة، ولا النقاشون بأطراف الخامات، إلى أمثالها تحسينا وتزويقا، ونقوشا تخطف الأبصار بريقا.

و كان فيما كتب السلطان به أنه لو أراد مريد أن يبني ما يعادل أشباه هذه الأبنية، لعجز عنها بإنفاق مائة ألف ألف درهم، في مدة مائتي سنة، على أيدي عملة كملة، ومهرة سحرة.

وفي جملة الأصنام خمسة من الذهب الأحمر مضروبة، على قدر خمسة أذرع في الهواء منصوبة، قد ألقمت عينا واحد منها ياقوتتين لو سيم مثلهما على السلطان لا بتاعهما بخمسين ألف دينار استرخاصا، ولم يستثن فيه دركا ولا خلاصا. وعلى آخر قطعة ياقوت أزرق أروى من ريق الماء، وبريق البهاء، تتزن أربعمائة وخمسين مثقالا. وخرج من وزن قدمي أحد الأصنام المذكورة أربعة آلاف وأربعمائة مثقال.

وكانت جملة الذهبيات الموجودة عن أجرام الأشخاص المنصوبة ثمانية وتسعين ألفا وثلاثمائة مثقال. وزادت الفضيات منها على مائتي قطعة، لم يمكن وزنها إلا بعد

التفصيل، والعرض على كفف المعابير. وأمر السلطان من بعد بسائر بيوت الأصنام، فضربت بالنفط والضرام، وجعلت سقوفها مواطىء الأقدام.

وسار من بعد قدما يروم قنّوج، وقد اشتق الفأل له من تصحيفه (فتوحا)، وعدّه صنعا من الله ممنوحا. وخلّف وراءه معظم العسكر تطميعا لراجيبال ملكها في الثبات لخفّة الزحام، وتقبيحا له قبل اللقاء صورة الانهزام، إذ كان أمراء الهند على غلب رقابها، وقوة أسبابها وأصحابها، أطواعا لراي قنّوج، اعتزازا بمكانه، واغترارا بفخامة شأنه. ولم يعبر على قلعة من قلاع تلك الرباع إلا وضعها بالأرض، وعرض أهلها على الإسلام أو السيف، وحاز من السبايا والنهاب، والنعم الرغاب، ما يعجز أنامل الحسّاب.

ووصل ثامن شعبان إلى قنّوج، وقد فارقها راجيبال حين سمع بإقدامه، فراق من لا يرى الهزيمة عنه عارا، ولا يعتد الفضيحة بها شنارا. وعبر السلطان الماء المسمى (گنگ)، وهو الذي يتواصف الهنود قدره وشرفه، ويرون من عين الخلد في السماء مفترقه. إن أحرق منهم ميت ذرّوه فيه بعظامه، وظنّوه طهرة لآثامه. وربما أتاه الناسك من بعيد فغرّق نفسه فيه، يرى أن ذلك ينجيه، وهو في العاجل يرديه، وفي الآجل يصليه ويخزيه، ثم لا يميته ولا يحييه.

وتتبع السلطان قلاع قنّوج فإذا هي سبع موضوعة على الماء المذكور، كالبحر المسجور. وفيها قريب من عشرة آلاف بيت للأصنام، يزعم المشركون أنها متوارثة منذ مائتي ألف سنة إلى ثلاثمائة ألف سنة، كذبا وزورا، وقولا موزورا، وعدولا عن سنن الهدى وكفورا. وبحسب قدمتها كانت عبادتهم لها، وإجهاشهم بالدعوات إليها. وقد شرّد عنها أكثر أهلها خيفة الأيم واليتم، وحلول النكير بآلهتهم الصمّ البكم، فمن بين ناج أغاثه نجاؤه، وثاو أباده ثواؤه، ولم ينجه من سيوف الحق أرضه ولا سماؤه، ففتحها كلها في يوم واحد، ثم أباحها لأهل عسكره يتناهبونها طلقا حلالا، ويتناوبونها وقما وإذلالا.

وركض منها إلى قلعة منج المعروفة بقلعة البراهمة، وهم حي لقاح، وعتاة ما لهم عن الفساد في تلك البلاد براح. فثبتوا للقراع أشباه العفاريت عارجة، والشياطين ماردة ومارجة، حتى إذا أعوزهم الثبات، وأعجزهم النجاة. وعلموا أن ليست لهم بالمسلمين طاقة، وأن دماءهم لا شك مهراقة، تهاووا من غرفات الجدران، وشرفات البنيان، على

شبا الرماح، وظبى الصفاح، استخفافًا بالنفوس والأرواح، واستسلاما لأمر الله المتاح. لا جرم أن السيوف أشربت الأرض دماءهم، وأطعمت النسور أشلاءهم. كذلك المنايا أصهار، من خطب إليها لم تر له ردا، ولم تجد من إنكاحه بدا.

وأخذ على تفيئة ذلك نحو قلعة آسي وصاحبها المعروف بچندبال بهور أحد أنياب الهنود، وأرباب الجنود. ولم يزل ذا منعة بالملك، وسعة في الملك، فعرض له راي قنّوج منازعا، ومادّه الحرب مكاوحا ومقارعا، فلم يزد على أن أتعب أولياءه، ونكل على الخيبة وراءه. وقد أحاط بهذه القلعة غياض متكاثفة كأعراف الجياد، ومتداخلة كأشعار الحداد. لا تستجيب الأفاعي بينها للرقاة، ولا يستنير البدر عندها للسراة. قد أحاطت بها خنادق قعيرات الحفائر، فسيحات الدوائر، إحاطة الثور بالثريّا فماله عنها انفراج، ولا لها دونه انعراج.

فلما شعر المذكور بزحف السلطان إليه في كواكب دولته، ومراكب جملته، فقد قلبه فرط الحذار، وجسّ نبضه فكان ذنب الفار. ورأى الموت فاغرا فاه، فلم يملك إلا أن يوليه قفاه. فأمر بقلع قلعته من أصولها، وتعويرها على من يهمّ آنفا بحلولها.

وقفّى آثاره بعفاريت أنصاره ينهبون ويغنمون، ويقتلون ويأسرون، حتى علم الكافرون أنهم هم الخاسرون.

وكان المخذول يرى أن أعوانه من كماة المقانب، وحماة الأشاهب، ورماة الكتائب، حتى رأى عسكر السلطان بين تلك المشاعب، وآثارهم بالقنا والقواضب، والقسي المواطر كالسحائب، فعلم أن ضرب اللاعب خلاف ضرب الثائر الغالب، وقوس المحلج غير قوس الناشب. ولما فصل السلطان أمر جندبال، وأذاقه في مهربه الداء العضال، عطف على چند راي- أحد أكابر الهند في قلعة شروة - وهو يظن أن القائل يعنيه بقوله[1]: [الطويل]

---

(١) البيت لإسحاق الموصلي، انظر: الأغاني ٢٨٨/٢، وصبح الأعشى ٤٣٠/١.

إسحاق الموصلي: (١٥٥ - ٢٣٥ هـ / ٧٧٢ - ٨٥٠ م)م هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمي الموصلي، أبو محمد بن النديم.

من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء، وكان عالماً باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام، راوياً للشعر حافظاً للأخبار، شاعراً له تصانيف، من أفراد الدهر أدباً وظرفاً وعلماً.

عطســت بــأنف شــامخ وتناولــت يــداي الثريــا قاعــدًا غيــر قــائم

قد ذهب بها على أن يعطي غيره مقاده، أو يألف غير التعزز عادة.

وكانت في غابر الأيام بينه وبين بروچيبال مناوشات تجاحش عن خيوط الرقاب، فدامت حتى استلحمت رجالا، واصطلمت أبطالا فأبطالا. ثم قام دست الحرب بينهما، فاضطرا إلى التوادع والتكاف، حقنا للدماء وصونا للأطراف.

وخطب بروچيبال إليه ابنته على ابنه بهيمال استدامة للألفة، وإماطة للفرقة، واستدفاعا للفساد، واستبقاء للسيوف في الأغماد. وسرّح ابنه إليه على تنجّزه عقد الوصلة، وشرط الاتشاج في اللحمة، والاشتراك في البيت والنعمة. فلما حصل الختن في يده، جعله تحت قدّه وقيده، وطالبه بعوض ما ذهب له على يد والده. فعجز بروچيبال عن قصد قلعته، واقتياض بيضته، واستخلاص ابنه من أسار محنته. غير أن المنازعة لم تنفك بينهما قائمة إلى أن طلعت رايات السلطان على تلك الحدود، وأسفر صنع الله له في المقصود بعد المقصود فأما بروچيبال فلحق ببهوجذيو - أحد المتعززين بحصانة المعاقل، وحزونة المداخل، وخشونة المواقل - خلاصا لمهجته، واعتياصا بزعمه على من همّ باقتصاص أثره. وأما چند راي فإنه استعد للمدافعة، واحتشد للممانعة، اعتزازا بوثاقة قلعته، ولو ثبت لا قتلعته، وإدلالا بمنعته، ولو وقف لا ختلعته.

فراسله بهيمال بأن محمودا ليس من جنس أكابر الهنود، وأمراء رجالهم السود. إن السلامة من مثله تغتنم، والجيش باسم أبيه يستهزم. وقد رأينا من كان أقوى منك حكمة، وأعلى أكمة، لم يقم لضربة من ضربات حدوده، ولم يف بهضبة من هضبات جنوده. فإن أردت الافتضاح فشأنك، أو الخلاص فغمّض ما استطعت مكانك.

=

فارسي الأصل، مولده ووفاته ببغداد، وعمي قبل موته بسنتين، نادم الرشيد والمأمون والواثق العباسيين. ولما مات نعي إلى المتوكل فقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته.

وألف كتباً كثيرة، قال ثعلب: رأيت لإسحاق الموصلي ألف جزء من لغات العرب كلها سماعه. من تصانيفه:

(كتاب أغانيه) التي غنى بها، و(أخبار عزة الميلاء)، و(أغاني معبد)، و(أخبار حماد عجرد)، و(أخبار ذي الرمة)، و(الاختيار من الأغاني) ألفه للواثق، و(مواريث الحكماء)، و(جواهر الكلام).

فعلم أن الرجل قد نصحه، وأنه إن خالف الحق فضحه، فسرّب أثقاله وأفياله، وخزائنه وأمواله، نحو جبال تناغي كواكب الجوزاء، وآجام تواري خد الأرض عن عين السماء. وورّى بوجه مقصده فلم يدر أين سار، وإلى أي الأقطار طار. أمتطى الليل أم اقتعد النهار؟!

وكان غرض النصيح المظلوم في تهريبه وتغريبه إشفاقه من حبالة الاقتناص، فيسام من كلمة الإسلام ما سيم أعمامه وأقاربه من قبل حين اضطروا إلى الاستئمان والاستسلام. فلما أحاط السلطان بتلك القلعة وافتتحها، على حصانة قواعدها، ومناعة مراقيها ومصاعدها، وتوسع منها في ثراء كثير، ومال على اختلاف أصنافه خطير، لم يهنه الموجود، وقد فاته الكافر المقصود، وضاقت به الأرض دون طلبه، وانتزاعه من يد مهربه، فاقتصّ أثره ركضا نحو خمسة عشر فرسخا بين منابت أشجار تصك الوجوه فتدميها، ومساقط أحجار تصدم الحوافر فتحفيها. ولحق القوم ليلة الأحد لخمس بقين من شعبان وقت العتمة، وهم يطوون مجاهل الأرض هبوطا وصعودا ولا طيّ التجار بحضرموت برودا.

وأهاب إلى أولياء الإسلام، وأبناء الصلاة والصيام، باقتصاصهم، وادّراع لباس الظلام في اقتناصهم، ثقة بالله الناصر لدينه، القاضي على الكفر بتوهينه، فكم من قتيل هنالك قبل أن يمسّه حر الحديد. وأسير تقيد قبل يد التقييد! فأما الأموال فباتت حجبا دون الأرواح، وسترا دون حد السلاح، وحرّ الجراح، فلا يعبأ بها. أو تشفى النفوس من عندة الكفار، وعبدة الشمس والنار.

وظل الأولياء يتتبعون طرائح المخاذيل ثلاثة أيام تباعا، تنفلا واغتناما حلالا بعد أن جمعها الكفار حراما. وأما الفيلة فمن بين مقهور ومردود، ومتطوع بالعود إلى السلطان محمود، لطفا من الله تعالى يتيح له غنائم الأموال، حتى يسوق إليه بهائم الأفيال. لا جرم أنها سميت (خداي آورد) شكرا لله على إلهام ما لا يمسك إلا بالمقامع، ولا يملك في المراتع إلّا بالحيل الخوادع، أن يأتي طوعا فيهجر الأصنام، ويخدم الدين والإسلام. ولقد أحسن من قال[1]: [مجزوء الكامل]

قل للأمير عبدت حتى ... قد أتاك الفيل عبدا

(١) انظر: نهاية الأرب ١٩٢/٩، ويتيمة الدهر ٢٧٣/٣.

سبحان من جمع المحا سن عنده قربا وبعدا
لو مسّ أعطاف النجو م جرين في التربيع سعدا
أو سار في أفق السما ء لأنبتت زهرا ووردا

وبلغ ما ردّ من خزائن السارب الهارب ذهبا وفضة، ويواقيت محمرة، وفرائد مبيضة قرابة ثلاثة آلاف ألف درهم. فأما السبي فالشاهد على كثرة عدده، ووفور مدده وقوع الاستيام على الواحد منهم ما بين درهمين إلى عشرة دراهم. ذلك فضل الله ذخره لأيام السلطان يمين الدولة وأمين الملة، وهو المليء له بتمام الثواب، يوم قيام الحساب، فالحمد لله خير معبود ومحمود، وله الشكر على ما أقرّ به عين محمد صلى الله عليه وسلم بمحمود.

obeikandl.com